أرض الظلام

The Night Land

اســــم الكتـــــاب: أرض الظلام (The Night Land)
التـأليـــــــــــــف: ويليــــام هــــوب هودســــون
نــــوع العمـــــــل: روايــة مترجمــة عــن الإنجليزيــة
ترجمـــــــــــــــة: محمــــد مصـــطفى الســـاكت
غـــــــــــــــلاف: محمـــــد عــــادل "بيــــدو"
مراجعــة وإخــراج فنــي: عمـــــرو ســـــالم ســــواح
رقـــــم الإيـــــداع: 2020/ 15736
التـــرقيم الـــدولي: 978-977-835-207-8
الناشــــــــــــــر: دار زحمة كتاب للنشـــر والتوزيع
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر
Facebook
Email za7ma-kotab@hotmail.com
Tel 002 01205100596
002 01100662595

أرض الظـــلام

روايــــة

The Night Land

William Hope Hodgson

ترجمها عن الإنجليزية:

محمد مصطفى الساكت

الطبعة الأولى سبتمبر 2020م

دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

مقدمة المترجم

عن الرواية:

هذه الرواية التي ألفها ويليام هوب هودسون عام ١٩١٢ عبارة عن رحلةٍ خياليةٍ مليئة بالصور الدراماتيكية والوحوش القبيحة والفظيعة. إنها قصة ملحمية تتناغم مع أساطير أورفيوس[١] حول دخول رجل إلى العالم السفلي وأرض الجحيم ليتمكن من إنقاذ المرأة التي عشقها وصار مُتيمًا بها.

يعيش بطل الرواية اللحظة التي وُلِدَتْ فيها حبيبته، والتي تموت بشكل مأساوي أثناء الولادة. ومن حُسن الحظ أن بطل الرواية لديه القدرة على الحُلم بالمستقبل البعيد؛ حيث يتجسَّد هو وحبيبته (ميرداث)، فبينما هو في الماضي فهو على دراية بذاته المستقبلية. ومن المثير للاهتمام أيضًا أن التجسد المستقبلي يجعله قادرًا على أن يتذكر تجسده في الزمنين: الماضي والحالي.

ففي المستقبل، حيث موت الشمس، وتجمَّعتْ جميع بقايا الكائنات البشرية في الحصن الأخير، وهو عبارة عن هرمٍ عظيمٍ كبيرٍ تحاصره

---

[١] أورفيوس Orpheus: كاتب وموسيقي أسطوري إغريقي، ويعتبر نبيًّا في الديانة اليونانية القديمة وفي الميثولوجيا الإغريقية.

مخلوقات غريبة وممسوخة ومتوحشة يُطلَق عليها (الحُرَّاس). وحيث إنه لم تكن هناك أية قوة لاتخاذ لوازم واستعدادات، فقد سُمِحَ لبعض القوى المخيفة أن يكون لها القدرة على التأثير في حياة البشر. تشمل هذه الوحوش الكائنات الصامتة والعملاقة وكلاب الصيد الليلية والأجساد القوطية والمستذئبين الذين يسكنون في مواقع معينة على أرض الظلام، مثل: (المكان الذي تقتل فيه الكائنات الصامتة)، و(أضواء المدينة الهادئة)، و(سهل النار الزرقاء).

في الواقع، تبدأ الحبكة أخيرًا بعد عدة فصول من بناء العالم عندما يدخل بطل الرواية في علاقة توارد خواطر بعيدة المدى مع امرأة ضمن مجموعة مفقودة على الجانب البعيد من أرض الظلام. إنه تجسُّد للسيدة ميرداث! إن تلك المجموعة المفقودة في حالة سيئة، حيث نفد (تيار الأرض)، والتربة سيئة وهجمات الوحوش متكررة. انطلقت الجيوش لإنقاذ المجموعة المفقودة وفشلت فشلًا ذريعًا. هذا يترك بطلنا فقط في رحلة عبر أرض الظلام والعودة مع الناجين.

وعلى أية حال، يعود بطلا الرواية إلى الهرم الأكبر (الحصن الأخير) بعد رحلةٍ شاقةٍ للغاية، وبعد قتالٍ مريرٍ في مواجهة تلك الكائنات الوحشية. إلا أن بطلة الرواية ستموت في طريق العودة إلى الهرم الأكبر. لكن وبعد تدمير كل شيء في أرض الظلام، عادتْ البطلة إلى الحياة مرة أخرى عبر قوة الحب وقوته.

قال عن الرواية (لورد كلفن[1]): (*إن حسابات مبنية على فرضية أن الطاقة تأتي من انهيار جاذبية سحابة الغاز التي شكلت الشمس، ووجد أن هذه الآلية أعطت الشمس مدى حياة يبلغ بضع عشرات من ملايين السنين. وانطلاقًا من هذه الفرضية، كتب هودسون رواية تصف زمنًا نحو ملايين السنين في المستقبل، عندما تصبح الشمس مظلمة*). ووصف (هوارد فيليبس لافكرافت[2]) في مقالٍ له بعنوان (رعب الخوارق في الأدب) هذه الرواية بأنها: (*إحدى أقوى القطع في أدب الرعب على الإطلاق*).

[1] لورد كلفن/ ويليام طومسون William Thomson: فيزيائي ومهندس إسكتلندي؛ مؤسس الفيزياء الحديثة، وُلِدَ في إيرلندا الشمالية في ٢٦ يونيو ١٨٢٤م وتُوفِّي في ١٧ ديسمبر ١٩٠٧م.

[2] هوارد فيليبس لافكرافت Howard Phillips Lovecraft: كاتب أمريكي وروائي وشاعر، وُلِدَ في ٢٠ أغسطس ١٨٩٠م، وتُوفِّي في ١٥ مارس ١٩٣٧م.

عن المؤلف:

إنه الروائي والكاتب البريطاني ويليام هوب هودسون، الذي وُلِدَ في ١٥ نوفمبر ١٨٧٧م في مقاطعة إسكس الإنجليزية، وقُتِلَ في ١٩ إبريل ١٩١٨م إبان الحرب العالمية الأولى عن عمر ٤٠ سنة. كان برتبة ملازم في الجيش الإنجليزي. أنتج مجموعةً كبيرةً من الأعمال، تتألف من مقالات، وروايات قصيرة، وروايات، تغطي العديد من الأنواع المتداخلة بما في ذلك الرعب والخيال الرائع والخيال العلمي. استخدم هودسون تجاربه في البحر لإضفاء تفاصيل حقيقية على قصص الرعب القصيرة، والكثير منها يقع على المحيط، بما في ذلك سلسلة من الحكايات المرتبطة به، والتي تشكل (قصص سارجاسو سي). تتميز رواياته، مثل (The House on the Borderland) سنة ١٩٠٨ و (The Night Land) سنة ١٩١٢، بموضوعات كونية أكثر، لكن العديد من رواياته تركز أيضًا على الرعب المرتبط بالبحر. في بداية حياته المهنية في الكتابة، كرَّس هودسون جهدًا للشعر، على الرغم من أن القليل من قصائده نُشرتْ خلال حياته. كما اجتذبَ بعض الأشعار كمصور وحقق شهرة في لعبة كمال الأجسام.

عن استراتيجية الترجمة إلى العربية:

إن روعة هذه الرواية أنها كُتِبَتْ بشكل مختلف تمامًا عن قصص الرعب والفانتازيا المعروفة، وعلى الرغم من ذلك إلا أن بها تفاصيل مملة للغاية ودقيقة. وللأمانة العلمية في ترجمتي العربية، إن تلك التفاصيل المملة والدقيقة جدًّا في الرواية الأصلية دفعني دفعًا إلى أسلوب الحذف Omission، وذلك حتى لا يشعر القارئ العربي بالملل الرهيب الذي سيصيبه بالتأكيد في قراءته الرواية الإنجليزية، وأعني تحديدًا (الفصل العاشر) لما فيه من إسهاب لا فائدة منه. وفي هذا الأمر، قال (كلارك أشتون سميث[١]):

(إنه في الأدب كله هناك عدد قليل من الأعمال اللافتة للنظر والمبدعة بحق، مثل أرض الظلام، ومهما كانت أخطاء هذا الكتاب، مثل إطالته المفرطة، فإنه يثير إعجاب القارئ بوصفه ملحمة نهائية عن هلاك الكون).

---

[١] كلارك أشتون سميث Clark Ashton Smith: شاعر أمريكي، ورسام وروائي، وُلِدَ في ١٣ يناير ١٨٩٣م وتُوفِّي في ١٤ أغسطس ١٩٦١م في الولايات المتحدة الأمريكية.

ذلك الحذف – وهو أسلوب من أساليب الترجمة – لم يؤثر على سرد الرواية وأحداثها، فلجأتُ أيضًا إلى الترجمة الحرة Free Translation في بعض الفقرات.

وأقتبسُ منشورًا كتبه أ.د. أحمد الشيمي[١] على صفحته بأحد مواقع التواصل الاجتماعي:

(وكان للعقاد[٢] مذهب في الترجمة كان يشرحه في بعض الأحيان في مقدمات كتبه التي كان يترجمها كلها أو مقتطفات منها، مثلما فعل في كتاب: " ألوان من القصة الأمريكية" حيث يقول: أما طريقتنا في الترجمة فهي مراعاة الأصل غاية المراعاة، ما لم يكن حشوًا لا محل له من لباب المعنى ومن الوجهة الفنية، ففي هذه الحالة نكتفي بالمفيد، ولا نلتزم الحشو، وهو لا يزيد في الكتاب كله على بضعة أسطر [...]. وقد أردنا ترجمة صادقة في

---

[١] الأستاذ الدكتور أحمد الشيمي: من مواليد ١٥ مارس ١٩٥٧م، أستاذ الأدب الإنجليزي والترجمة – عميد كلية الألسن – جامعة بني سويف.

[٢] محمود عباس العقاد: أديب مصري، ومفكر وصحفي وشاعر.

نقل العبارة بمعانيها وظلالها، ولم نرد نسخًا كنسخ الورَّاقين Copyism *من لغةٍ إلى أخرى، فمن سمى ذلك نسخًا أو مسخًا، فقد أصاب التسمية!*

(ص ١١) من (ألوان من القصة الأمريكية).

محمد مصطفى الساكت

الإسكندرية في ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠

Email: muhammadalsaket89@gmail.com

❖❖❖

الفصل الأول

ميرداث الجميلة

دفعتنا فرحة الغروب إلى الحديث. فقد سِرتُ وحيدًا بعيدًا عن منزلي، وأتوقفُ كثيرًا فأشاهد شرفات المساء، فأتحسس المحبوبة وتكاثف السحاب الغريب من الظلام الذي يتداخل في كل العالم من حولي.

وفي المرة الماضية، توقفتُ حين أيقنتُ أنني ضللتُ الطريق في سعادةٍ غامرةٍ من قوة الظلام القادم الطاغي. فضحكتُ حتى اختنقتْ الضحكة في حلقي، ووقفتُ هناك وحدي في منتصف هذا الظلام على الأرض. يا للعجب! قد ظهر لي بوضوحٍ تام من الأشجار التي تحيط بطريق البلد على الجانب الأيمن؛ وذلك أن قائلًا قال: «وكذلك أنت!»، مما دفعني للضحك ثانيةً، مما جعلني أميل إلى أنّ إنسانًا حقيقيًا قام بالرد على سخريتي؛ وبالأحرى أن هاجِسًا أو وهمًا جذَّابًا، أو شبحًا استجاب لما عليه حالتي المزاجية.

لكنها تحدثتْ إليَّ ونادتني باسمي؛ وحينما توجهتُ إلى جانب الطريق، حتى يتسنَّى لي رؤيتها قليلًا وأستكشف ما إذا كنتُ أعرفها أو لا، فنظرتُ إليها فوجدتُها امرأة بالفعل، التي عُرِفَتْ بجمالها بين أهل مقاطعة كِنْت البريطانية باسم ميرداث الجميلة؛ فهي جارتي قريبة مني، فظهر حارس بيتها يستعظم نفسه عليَّ.

ومع ذلك، حتى ذلك الوقت، لم أقابلْها قط؛ لأن كثيرًا ما كنتُ خارج البلاد لوقتٍ طويل، وكذلك أعطيتُ كثيرًا من جهودي لدراساتي وتدريباتي بالبيت. فلم يكن لديَّ أية معرفة بها أكثر مما روجت الشائعات عنها في وقتٍ غريب، أما بالنسبة لما تبقى، فأنا

على ما يرام، وكما أشرتُ من قبل، فإن كتبي وتدريباتي قد حَالتَا بيني وبينها. ولأنني كنتُ رياضيًّا، ولم ألتقِ بالرجل بهذه السرعة أو بهذه القوة مثلما كنتُ، إلا في بعض الروايات الخيالية أو على لسان المتكبِّر أو متباهٍ بنفسه.

وقد وقفتُ هنا على الفور وقبعتي في يدي، وأجبتُ على مزاحها اللطيف قدر استطاعتي، بينما كنتُ أمعن النظر فيها وأتساءل عن هذا العبث وهذه الكآبة، كما أن الشائعات لم تروَ لي رواية تناظر جمال هذه الفتاة الغريبة، التي وقفتْ لتوِّها تمزحُ بروح معنية جميلة، وبحسب القرابة معي (قرابة بنت العم) – كما هي الحقيقة – استيقظتُ لتوِّي حتى يتسنَّى لي التفكير.

في الواقع، فإنها لم تُحْدِثْ ضجَّة؛ بل أطلقت عليَّ لقب (المُخلِص) من اسمي، ووافقتْ على أن أُناديها بـ ميرداث، لا أكثر ولا أقل في ذلك الوقت. ثم عرضتْ عليَّ أن أدنو من السياج، وأستفيدَ من الفارِق الذي كان سرًّا خاصًّا – كما أقرتْ بذلك. وعندما كانت في إجازتها مع خادمتها ذاهبةً إلى حفلة ساهرة من حفلات البلد، ارتدتْ ملابسًا كملابس فتيات القرية، لكن لا لكي تضلل الكثيرين وتخدعهم بملابسها – كما كنتُ على يقينٍ بذلك.

ثم دنوت من الممر الضيق الذي بالسياج، ووقفتُ بجانبها، فبدتْ لي أنها طويلة القامة عندما نظرتُ إلى أعلى، فكانت طويلة

القامة حقًّا، لكنني في الحقيقة كنتُ أطول منها بمقدار الرأس[١]، فطلبتْ مني أن أمشي بصُحبتها إلى المنزل؛ حيث التقيتُ بالحارس وعبَّرتُ عن حزني لأنني أهملتُ في دعوتهم. فكانت عيناها – في الحقيقة – تلمع بالشر والبهجة، كما أطلقتْ عليَّ سابقًا بسبب خطئي.

❁❁❁

في الحقيقة – وفي لحظة – أظهرتْ هدوءها، ورفعتْ إصبعها لكي أسكت؛ لأنها سمِعَتْ أن شيئًا ما في الغابة الموضوع على يمين طول الطريق. بالفعل، سمعتُ شيئًا ما كذلك! فمن المؤكد أن حفيفَ أوراق الأشجار هو ذلك، وطقطقة غصن شجرة هالك له صوت واضح وقوي في هذا السكون بالمكان.

وعلى الفور، جاء ثلاثة رجال في اتجاهي يهربون من الغابة، فصرختُ فيهم أن يبتعدوا أو ألَّا يصيبونني بأي ضرر! فوضعتُ الفتاة على ظهري بيدي اليسرى، وأمسكتُ بعصا من خشب البلوط على أهبة الاستعداد لاستخدامها.

---

[١] مقدار الرأس: ترجمة للتعبير الإنجليزي a head taller then (كما جاءت في النص الأصلي)، وهذا التعبير لا يعني أن كلمة (الرأس) وِحدة معيارية؛ لكنه تعبير يستخدمه الإنجليز للحصول على أفضل صورة يمكن أن يتخيلها الإنسان للطول بين شخصين، وهي حرفيًّا تعني أن رأس الشخص القصير في محاذاة ذقن الشخص الطويل، وهي تعادل ما بين ٨ إلى ١٤ بوصة.

فلم يُلق أحدهم بالًا لصرختي، لكنهم أسرعوا إليَّ، فرأيتُ شيئًا يشبه بريق السكاكين، عند هذا الحد تحركتُ في سعادة وبسرعة لأكون في موضع الهجوم. أما من خلفي، انطلقَ صوت الصفير بشدة، وبه جمال، فكانت الفتاة قد أطلقتْ صوت صفيرها لأجل كلابها، وربما كان إشارةً إلى الخَدَمِ من الرجال بمنزلها.

ومع ذلك، حتى هذه اللحظة، لم تكن هناك أية فائدة من المساعدة التي لم تأتِ في حينها؛ لأن الحاجة إليها كانت فورية آنذاك. أما بالنسبة لي، فلستُ مُشمئِزًّا بالكلية في استخدام قوتي وقدرتي قبل ابنة عمي. بعد ذلك تقدمتُ خطوة إلى الأمام – بخفة حركة – كما قلتُ، وبسبب العصا التي كانت بحوزتي، والتي غرستُها في الجانب الأيسر من جسد الرجل، وقع ميتًا. أما ثاني الرجال فوجهتُ إليه ضربةً شديدةً على رأسه التي قضتْ عليه تمامًا، حتى سقط فورًا على الأرض. وأما الرجل الثالث الذي لكمتُه بقبضتي، لم يكن بحاجةٍ إلى ضربةٍ ثانيةٍ، وإنما سرعان ما لَحِقَ برفاقه. وبالتالي انتهى العِراكُ قبل أن يبدأ بصورة صحيحة على الإطلاق. ثم ضحكتُ قليلًا (تقديرًا لكفاءتي الشخصية) حتى أعلم تلك الحيرة التي لمستُها في الطريقة التي لمستْها السيدة ميرداث – ابنة عمي – فوقفتْ ونظرتْ إليَّ بخصوص الظلام الدامس الذي حلَّ بهما.

ففي الواقع، لم يتبق لنا وقت قبل أن تحيط بنا ثلاثة من الكلاب الدانماركية الضخمة – الذين أُطْلِقَ سراحهم لحظة أن أطلقتْ صوتها للصفير – ثم قامتْ بإحداث حالة من الصخب حتى تُبْعِدهم عني، ومن ثَمَّ قمتُ بضربِهم بعيدًا عن الثلاثة رجال المُلقين

على الأرض؛ وذلك خشية أن يفترسوهم وقد طُرِحوا أرضًا. وعلى الفور، كان يوجد ضجيج لرجالٍ يصيحون، وكان ضوء القناديل في الليل، وخَدَم المنزل يهرولون إلينا مسرعين بقناديلهم وهِراواتهم[١]، ولم أكن أعرف إذا ما كانوا سيعترضونني أو لا – في الوهلة الأولى – حتى مع الكلاب نفس الأمر. لكن عندما رأوا الثلاثة رجال مُلقين على الأرض، وتحققوا مني جيدًا، أبقوا على مسافة جيدة بيني وبينهم، ولم يقللوا من شأني أو التعرض لي بأذى؛ وإنما – في الحقيقة – كانت ابنة عمي الجميلة الأكثر قُربًا مني في المسافة، ولم تُظهِر النية في الابتعاد عني كما فعلوا؛ لكنها أبدتْ شعورًا جديدًا وأعمق في القرابة والعلاقة من ذي قبل.

وأما بالنسبة للخَدَمِ من الرجال، فسألوني عن قُطَّاعِ الطُّرُقِ كيف يتعاملون معهم؛ فقد بدتْ عليهم الاستفاقة من بعد ما ضُرِبوا وطُرِحُوا أرضًا بقوة. لكني – في الحقيقة – تركتُ الأمرَ للخَدم، وأعطيتُهم بعض النقود الفضيَّة؛ لأنني سمعتُ بكاءً شديدًا من هؤلاء قُطَّاع الطرق بعد أن ابتعدنا عنهم بمدة قصيرة، قام خدم المنزل بتوزيـع هذه النقود الفضيَّة عليهم بالتساوي.

❁❁❁

---

[١] هِراوات: جمع هِراوة؛ أي عصا.

الآن، وبعد أن وصلنا إلى بَهْوِ المنزلِ، أخذتني ابنة عمي إلى الحارس – السيد ألفريد چارليس – وهو رجل عجوز ومهيب الهيئة الذي رأيتُه رؤيةً عابرةً؛ وذلك لأن أملاكنَا وعِزبتنَا منازلها كثيرة. وبأسلوبٍ راقٍ شكرتْ صنيعي معها أمام الحارس العجوز، والذي شكرَني أيضًا بأجمل الكلمات وبكثيرٍ من الشكر. وهكذا صِرْتُ صديقًا للمنزل مُرحَّبًا به من الآن فصاعدًا.

فلَبِثْتُ هذا المساء في المنزل، وتناولتُ العشاءَ، ثم بعد ذلك خرجتُ مجددًا مع السيدة ميرداث إلى القصر؛ فقد كانت أكثر وُدًّا ولُطفًا معي من أي امرأة أخرى في أي وقتٍ مضى، كما بدتْ لي كما لو أنها تعرفني دائمًا. ففي الحقيقة كان لديَّ الشعور نفسه في قلبي تجاهها؛ لأنه كان، بطريقةٍ أو بأخرى، كأنما كان كِلانا يعرف الطريق إلى الآخر. كذلك كان لديَّ سعادة متواصلة، عندما وجدتُ أنه شعور مشترك بيننا. فلا غرابة في ذلك؛ فإن منتهى السعادة أن تجدَ الحقيقة في ذلك الأمر هي أمرٌ طبيعيٌّ جدًّا.

إلا أن شيئًا جعلني أتصور أن السيدة ميرداث تحملُ شيئًا في ثنايا نفسها في هذه الليلة قبل النوم. وبالفعل كان الأمر كذلك، وهو أن الطريقة التي تعاملتُ بها مع قُطَّاعِ الطُّرُقِ الثلاثة كانت من دواعي سروري؛ لذا فقد سألتني بوضوحٍ ما إذا لم أكن قويًّا حينها فعلًا. فضحكتُ ضحكةً مليئة بعُنفوانِ الشبابِ وغطرسته، فأمسكتْ بذراعي فجأةً لتكشف بنفسها عن مدى قوتي كيف تكون. ثم أرختْ قبضتها التي أمسكتْ بها ذراعي، بل وبمزيدٍ من الفجأةٍ، وقليل من شعورها بالدهشة؛ فقد كان الأمر بالنسبة إليها عظيمًا. وبعدئذٍ؛

سارتْ معي في صمتٍ شديد، وكان يبدو عليها التأثُّر والتفكير العميق؛ لكنها لم تبتعد عني في المسافة بيني وبينها قط.

ففي الحقيقة، إذا كانت السيدة ميرداث تتمتعُ بسعادة غريبةٍ بقوتي وشدتي، فقد كنتُ أتساءلُ بالمِثل دائمًا وأتعجبُ من جمالِها. ذلك الجمال الذي ظهرَ كان أكثر جمالًا على ضوء الشموع في العَشاءِ.

لم يقف الأمر إلى هذا الحد؛ بل كانت السعادة تغمرني في الأيام التي توالت؛ وذلك لأنني سُرِرْتُ بتلك الطريقة التي أسعدتْها من الغموض في هذا المساء، وسِحر الليل، وبهجة بزوغ الشمس، وما شابه ذلك.

وفي إحدى الليالي – التي ما زلتُ أتذكرُها جيدًا – أنه بينما كنا نتجولُ في الحدائق، بدأتْ كلامها – بتسرعٍ – وقالت: إنها حقًّا ليلة الآلف[1] . لكنها توقفتْ عن الكلام فورًا، كما لو كانت تعتقد أنه يجب

[1] الآلف/ الإلف elf: في النص الأصلي elves-night هي كائنات أسطورية من الميثولوجيا ارتبطت بقصص العجائب وأدب الفانتازيا. وهذه الكائنات في الغالب على هيئة مخلوقات صغيرة الحجم تعيش في الغابات والكهوف وعلى التلال. فهي كائنات شبه بشرية، ويتميزون عن البشر بآذانهم المدببة وأجسامهم الرشيقة. ويمكنني ترجمتها إلى (ليلة العفاريت الأقزام/ ليلة الجان الشيطاني)، أو الإبقاء عليها (ليلة الآلف) عن طريق التعريب بزيادة (الألف واللام) إليها.

أَلَّا أفهم، أما في الحقيقة فكنتُ أشعر بالسعادة الداخلية التي تنبع من داخلي، فأجبتُها بصوتٍ هادئ وطبيعي أن: هذه الليلة سوف تزداد فيها قلاع المبيت. ثم شعرتُ بذلك في عظامي أنها كانت هي الليلة لاكتشاف قبر العملاق، أو الشجرة العظيمة ذات الرأس المطليَّة. وفجأة توقفتُ! فإذ بها في هذه اللحظة تُمْسِكُ بي؛ حيث كانت يدها ترتعش أثناء تشبثها بي، لكن عندما سألتُها عما أزعجها، طلبتْ مني وهي حابسة أنفاسها جدًّا أن أقول ... أن أقول! ففهمتُ فَهمًا عابرًا – بعد ذلك – بعد أن أخبرتها كنتُ كذلك؛ أي قصدتُ أن أتحدث إلى بستان القمر[١] التي كانت هوايتي القديمة وكانت تُسْعدني.

وبعدما قلتُ ذلك، فإن السيدة ميرداث صاحتْ بصوتٍ منخفضٍ، لكن فيه شيء من الغرابة، فأوقفتني أمامها وواجهتني، فسألتني بنبرة جادة جدًّا، فأجبتها بنفس النبرة الجادة؛ وذلك لأنني تنبَّهتُ فجأةً للأمر في حماسة، حيث أدركتُ أنها تعرف أيضًا! أما الحقيقة فقد أخبرتني أن لديها معرفة؛ لكن الفكرة التي برأسها جعلتها تعتقد أنها بمفردها في هذا العالم بهذه المعرفة وحسب عن تلك الأرض الغريبة فيما يتعلق بأحلامها. وأما الآن، وجدتُ أنني

---

[١] بستان القمر/ بساتين القمر: وهي ترجمة حرفية للنص الأصلي Moon Garden وهي مناظر طبيعية أُنْشِئَتْ أساسًا للاستمتاع بجمالها ليلًا، فإذا جَنَّ الليلُ وبدأ مغيب الشمس في الظهور، فإن هذه المناظر الطبيعية تفوح منها رائحة جميلة من أزهار الليل المتفتحة. وتُسْتَخدم كذلك في ممارسات التأمل والاسترخاء واليوغا وغيرها.

سافرتُ كذلك إلى تلك الأراضي الغريبة والعزيزة؛ إنها أرض الأحلام. إنها عجيبة – عجيبة حقًّا! ومرة أخرى، بينما كنا نسير سويًّا، إذ باحتْ بكلمة تفيد أن لديها قليل من التعجب حين ألحَّتْ بقوة لتستدعيني في تلك الليلة؛ حيث رأتني قد توقفتُ على الطريق؛ رغم أنها، في الحقيقة، قد كانت تعلم تلك القرابة التي بيننا من قبل، بعد أن رأتني أمتطي[١] ظهر فرسي. لكنها تحققتْ مني، فأزعجها بشدة أنني لم أتنبه إلى السيدة ميرداث الجميلة. أما حقيقة الأمر؛ فأشغلني كثير من الأمور، ولكن التقيتُ بها من قبل أن أراها.

ويجب، الآن، ألَّا تظن أن التعجب من هذا الأمر أثار حفيظتي؛ حيث كان لكلانا (معرفة حالِمة) لنفس الأمور، والتي ظَنَّ كلّ منا أن الآخر لا يعلمها. وبعد ذلك؛ عندما أكثرتُ من الأسئلةِ، كان هناك كثيرٌ في خيالاتي أنها كانت غريبة عنها، وكذلك كثيرٌ كان مألوفًا لها، وكان ذلك لا يعني لي شيئًا. وعلى الرغم من وجود هذا، والذي جعلنا نندمُ قليلًا، فسيكون هناك – مرة تلو الأخرى – بعض الأشياء الجديدة التي قالها واحدٌ منا، وأن الآخر يعرف ذلك ويستطيع أن يُنهِيَ ما يريد الإخبار عنه، وذلك لأن كلينا في حالةٍ من الفرح والسعادة والدهشة.

[١] أمتطي: أركب على ظهر الفرس؛ أي اتخذه مطيَّة.

وعليك أن ترسمَ صورة لنا في ذهنك عما كان يحدث بيننا أثناء تجولنا وحديثنا المستمر، وهكذا ساعةً تلو الأخرى، ونحن نكبر سويًّا وتجمعنا صداقة لطيفة وجميلة.

وبالفعل لم أعرف كيف مرَّ الوقت! إلَّا أنه في الحال كانت هناك ضجَّة، وصيحات عالية لأصوات رجال، وكذلك نباح الكلاب وأضواء القناديل. لذا لم أكن أعرف كيف أفكر! فظهرتْ فجأة ضحكة صغيرة جميلة وغريبة في آنٍ واحدٍ من السيدة ميرداث، فاتضح لنا أننا قد قضينا ساعات في حديثنا حتى إن الحارس كان يبحث عنها لأنه كان قلقًا جدًّا بشأن قُطَّاع الطرق الثلاثة. فقد كنا نتجول سويًّا طيلة هذا الوقت كله ونحن سعداء، وقد أهملنا الوقت تمامًا.

فاتجهنا إلى المنزل، ثم كانت توجهنا إلى الجهة التي صدرتْ منها الأضواء، إلَّا أنَّ الكلاب قد ألحقتْ بنا قبل أن نصل إلى هناك. فقد اعتادتْ الكلاب عليَّ وأَلِفَتْنِي حتى صارتْ تقفز وتنبح من حولي بنباحٍ يحمل الفرحة بوجودي. ففي دقيقةٍ عثرَ علينا الرجال، وعادوا إلى السيد چارليس ليخبروه أن كلَّ شيءٍ على ما يُرام.

كانتْ هذه هي الطريقة التي سردتُها تصف لقاءنا، وازدادتْ معرفتُنا ببعض، وكذلك كانت هي الطريقة التي تصف بداية حبي القوي الذي كان من نصيب السيدة ميرداث الجميلة.

ومن تلك اللحظة، ومرَّتْ الليالي التي كنتُ أذهب إلى التجوُّلِ على طول طريق البلد الهادئ، والذي يبدأ من منزلي إلى منزل السيد

چارليس. ودائمًا ما كنتُ أذهب إلى الممر الضيق الذي بالسياج، وكثيرًا ما كنتُ أجدُ السيدة ميرداث كانت تمشي في تلك المنطقة من الغابة، لكن دائمًا ما تكون كلاب الصيد في صُحبتها؛ وذلك بعد أن توسلتْ إليها لتفعل ذلك من أجل سلامتها. فكانت تفعل ذلك لكي تُرضيني. أما في الحقيقة فقد كانت حمقاء في أمورٍ كثيرةٍ، وكانت تسعى جَاهِدًا لمضايقتي. كان ذلك بدافعٍ يدفعُها إلى أن تستكشف كم سأتحمل ذلك الحُمق والمضايقة، وإلى أي مدى يمكنها أن تُغضِبُني.

كما تذكرتُ كيف أنني في تلك الليلة آتي إلى ذلك الممر الضيق الذي بالسور، فكنتُ أرى خادمتين تخرجان من حدائق السيد چارليس؛ لكنني لم أبالِ بشأنهما. كما كنتُ أصعد عبر ذلك الممر الضيق – كالعادة – فقط لأنهما كانا يسمحان لي بالمرور، ثم قامتا بالانحناء قليلًا بطريقةٍ رشيقةٍ لفتياتٍ من أصحاب الطباع الحادَّة. فأتتني فكرة بأن أصعدَ إليهنَّ لأراهنَّ عن كثب، فلما نظرتُ إليهن وجدتُ أن السيدة ميرداث كانت الأطول، إلَّا أنني لستُ على يقين. وذلك لأنني عندما سألتُ عنها مَن تكون هي، فقد كانت تبتسم بتكلف وتنحني فقط للمرة الثانية. وهكذا، فقد كان الغموض في الأمر ببساطة جدًّا. وكان ذلك سببًا كافيًا ليثير الدهشة – أي أن السيدة ميرداث لديها العِلم في متابعتها لهؤلاء الخادمات، وهذا هو ما فعلتُه كذلك.

ومن ثم، فإنهن كن على عجل من أمرهنَّ، كما لو أنني كنتُ وحشًا عملاقًا جئتُ لأعتدي عليهنَّ، مما أعطاهن الحق في الخوف،

وخصوصًا أنهنَّ بمفردهنَّ في الليل! وهكذا جاءت أخيرًا إلى القرية الخضراء وهي ترقص على الأقدام بالقناديل، وعازف، وكثيرة من الخمر.

انخرط الاثنان في الرقص، ورقصوا بحماس وحب. كلٌّ يرقصُ مع قرينه، حريصين جدًّا على عدم الاقتراب من القناديل.

وبهذه الطريقة، تيقنتُ تمامًا أنهما السيدة ميرداث وخادمتها. لذا؛ انتهزتُ الفرصةَ، فتقدمتُ خطوة باتجاههما لكي أطلب منهما أن يرقصا بحماسة أشد. لكن في الحقيقة أجابتْ أطولهنَّ بابتسامة متكلفة بأنها قد وُعِدَتْ بذلك. وعلى الفور، مدتْ يدها لمزارعٍ ضخم قميء، فتجولا معًا حول القرية الخضراء، لكنها عُوقِبَتْ لأنها تمردتْ وعاندتْ. ولكي تتجنب خطواته الراقصة بقدميه الغليظتين، كانت ترقص معه بمهارة شديدة حتى تحافظ على نعومة قدميها حتى لا تُصاب بأذى من تلك القدمين الغليظتين. كانت السعادة تغمرها؛ لأن نهاية الرقصة قد انتهت.

أما الآن، فقد تأكدتُ تمامًا أنها السيدة ميرداث الجميلة، بالرغم ما فعلته للتنكر، وحلول الظلام، وارتدائها لملابس الخادمات. فاتجهتُ إليها، ودعوتُها هامسًا في أذنيها باسمها. ثم نصحتُها عما فعلتْه من الحماقة، وأخبرتُها أنني سأصحبها إلى المنزل. هربتْ مني، وهرولتْ مرة أخرى إلى ذلك غليظ القدمين لترقص معه رقصة أخرى. وعندما أحستْ بالتعب مرة أخرى بسبب قدميه

الغليظتين، عرضتْ عليه أن يرافقها في طريقها إلى المنزل، فلم يكن يكره ذلك.

ورافقه غلام آخر أيضًا معها أثناء سيرهما في الطريق إلى المنزل. وفي لحظة ما، وبعد أن ابتعدوا عن ضوء القناديل، قام الغلامان اللذان يسيران خلفهما بوضع أذرعهما حول خاصرتي الخادمتين. فلم تعد السيدة ميرداث قادرة على التحمل، فصرختْ وهي ترتعد من الخوف وأصابها الغثيان. لذا؛ فإنها ضربتْ بعنف أحد الغلامين الذي احتضنها حتى انفكت يديه من حول خاصرتها، وهو يحنث في أيمانه المُغلَّظة. لم يكن الأمر كذلك، بل عاد إليها مرة أخرى، وأخذ في تقبيلها، لكنها كانت مشمئزة منه، فقامتْ بضربه ضربًا مبرحًا بيديها على وجهه حتى كادت أن تقتله. أما أنا فكنتُ قريبًا منهم جدًّا. ففي تلك اللحظة، صرختْ بصوتٍ عالٍ مستغيثةً بي، وتناديني، فأمسكتُ ذلك الرجل السكير العربيد وضربتُه ضربةً مؤلمة من غير أذًى له. وبعد ذلك ألقيتُ به على جانب الطريق. أما بالنسبة للغلام الآخر – الذي كان يسير بالخلف – فقد ترك الخادمة التي احتضنها من الخلف، عندما سَمِعَ صوتي، ونجا بنفسه. وبالفعل، كانت قوتي معروفة فيما يتعلق بهذا الجزء.

❁❁❁

عقب ذلك، أمسكتُ بالسيدة ميرداث الجميلة وجذبتُها إليَّ من كتفها؛ كنتُ غاضبًا جدًّا حينئذ. وبعدئذٍ، قمتُ بإبعاد الخادمة عنَّا إلى الأمام قليلًا، فاستجابتْ لي؛ لأن سيدتَها لم تتفوه بكلمةٍ

بخلاف ذلك. فبتلك الطريقة وصلنا إلى ذلك الممر الضيق الموجودة بالسياج، ومعنا السيدة ميرداث. لكننا وصلنا في سرية، وتكتم شديد حتى لا يعلم أحد بوصولنا. قد كانت تمشي بالقرب مني، لأنها كانت مسرورة بذلك. دخلنا من الممر الضيق متجهين إلى المنزل حتى وصلنا إلى بهو المنزل، ومن ثم قلتُ لها: تصبحين على خير، وكنا واقفين حينئذ أمام الباب الجانبي للغرفة التي كانت تحمل مفتاحه. وبالفعل، فقد بادلتني تحية المساء بصوتٍ هادئ تمامًا. فكانت – على ما أظن – لم تود أن تبتعد عني في تلك الليلة.

ففي صباح الغد حين التقيتُ بها، لم تكن كما كانت ليلة أمس، بل كانت وقحة معي لأقصى درجة! لذلك؛ كنتُ أتركها وحيدةً، حتى إذا جَنَّ الليلُ سألتُها: لماذا لن ينتهي هذا العناد معي؟ فإنّ رفقتي لكِ كل يوم تؤلمني كثيرًا في مشاعري. في مقابل ذلك؛ كان ردها أنها ليستْ في حاجةٍ إليَّ. كانت في ذلك الوقت لطيفة للغاية معي، حديثها إليَّ جميل وجذَّاب. أدركتْ أنني أبتغي الراحة النفسية، فذهبتْ وأتتْ بالقيثارة حتى تطربَ آذاني بالألحان المحببة إلينا في فترة طفولتنا كل مساء. وهكذا كان حبي لها أكثر سرورًا وبهجةً. ورأتني في تلك الليلة وأنا أتجه إلى الممر الضيق، وكان معها ثلاثة من الكلاب الدانماركية الضخمة من أجل مرافقتها إلى منزلها مرة أخرى. لكنني تعقَّبتُها – بعد ذلك – في هدوء شديد، حتى رأيتُها بداخل بهو المنزل آمنة مطمئنة؛ فلم أكن أرغب أن أتركها وحدها في الظلام، على الرغم من أنها كانت تعتقد أنني قد ابتعدتُ عنها، ولم أهتم لأمرها، على طريق البلد.

فبينما كانت تمشي في الطريق، إذ بأحد الكلاب يهرول باتجاهي ليحشر أنفه في ملابسي على نحوٍ وِدِّيّ. لكني أبعدتَه عني بهدوء شديد حتى لا تشعر بشيء. وبالفعل لم تشعر بأي شيء قط. أما فيما يتعلق بالسيدة ميرداث فشرعتْ في الغناء بصوتٍ هادئ وعذب على طول الطريق وهي متجهة إلى المنزل. لكن أهي تحبني حقًّا؟! لا أجزم بذلك، على الرغم من وجود عاطفة جيَّاشة منها لي.

❁❁❁

وفي المساء التالي، ذهبتُ إلى الممر الضيق مبكرًا. من هذا؟! من ذا الذي يقف هناك، ويتحدث إلى السيدة ميرداث؟! يبدو أنه ذكيٌّ إذ أنه ألقى نظرة على القصر حوله. فلما رآني أقتربُ، حَالَ بيني وبين الوصول إلى تلك الفجوة، ثم نظر إليَّ بعُنْجهيَّة وغطرسة. لذا فقد مددتُ يدي نحوه وأبعدتَه عن طريقي.

يا للهول! إنها السيدة ميرداث توجهتْ إليَّ وأطلقتْ العنان لكلامها اللاذع الذي آلمني بشدة. إن في هذه اللحظة تأكَّدَ لي أنها لم يكن في قلبها حب حقيقي تجاهي، أو أنها أرادتْ أن تضعني في موقفٍ مُحرجٍ أمام شخص غريب. لم تكتفِ بذلك، بل نادتني بطريقة مشينة وكأنها وَحْش أمامي لا أعرف كُنْهه. ولك أن تدركَ كيف كان حال قلبي في تلك اللحظة العصيبة.

ومن باب الإنصاف، ربما كانت محقة فيما قالته؛ فربما قد أظهر ذلك الغريب شجاعة أفضل مني. علاوةً على ذلك فلم يكن مقصود ميرداث الجميلة إهانتي وتوبيخي أمام ذلك الغريب، فأنا

صديقها وابن عمها. وبالرغم من ذلك، فلم أتوقف عن الجدال معها، ثم انحنيتُ لها قليلًا، وكذلك انحنيتُ لذلك الغريب، واعتذرتُ لهما. لم يكن ذلك ضعف مني تجاهه؛ فلم يكن قويًّا ولا شجاعًا، لكن أردتُ أن أُظْهِرَ له احترامي وتقديري له على الأقل في بداية الأمر.

وهكذا، بعد أن انتصرتُ إلى احترام ذاتي، تركتُهما وهما في كامل سعادتهما.

وقبل عودتي إلى منزلي، سِرتُ ما يقرب من عشرين ميلًا. فلم تنتابني أية لحظة من لحظات الراحة في تلك الليلة. فقد أدمنتُ على حُب السيدة ميرداث الجميلة، لكن – وبدون مقدمات – شعرتُ بألم في روحي وقلبي وجسدي قاسٍ بسبب ما سمعتُه منها في تلك الليلة.

ولمدة أسبوع كاملًا، كانت خطواتي تسير في اتجاهٍ آخر. لكن في نهاية الأسبوع وَجَبَ عليَّ أن أعود إلى الطريق القديم الذي كنتُ أسيرُ فيه، فربما تُتاح لي الفرصة لتظل سيدتي تحت عيني. وبالفعل، دفعتني الغيرة المرعبة إلى أن أجعلها تحت مراقبتي طوال الوقت. فبينما أتيتُ إلى ذلك الممر الضيق ودخلتُ منه، إذ بها تمشي بلا حاشية؛ بل كان يسير بجانبها ذلك الرجل الذي كان بالقصر أول مرة. فلما نظرتُ إليهما، وجدتُها قد سمحتْ له أن يضمها بذراعيه، مما أكدَّ لي أنهما كانوا عاشقين. وبالمناسبة؛ لم يكن للسيدة ميرداث إخوة ذكور أو أقارب من الرجال.

ومع ذلك، حينما رأتني ميرداث على الطريق، شعرتْ بالخجل؛ لأنها وضعتْ ذراع حبيبها حول خصرها، لكنها انحنت لي قليلًا، وعَلَتْ وجهها حُمْرَة الخَجَلِ. فقابلتُ انحناءها بانحناءٍ مني لكوني شابًّا صغيرًا. وهكذا مرَّ الأمر، إلا أن قلبي من الداخل في حُكم الميت. فلم ألبث قليلًا إلا وقد تركتهما ثانيةً وسرتُ في طريقي، لكن رأيتُ حبيبها قد عاد مرة أخرى، ولم يكتفِ بذلك؛ بل وضع ذراعيه حول خصرها ليحتضنها. وبالتالي – ربما – راقباني ماذا أفعل بعد ذلك، لكني لم ألقِ لهما بالًا. فقد كنتُ في حالة شديدة اليأس، فلم أنظر إليهما كما كانت تظن.

❖❖❖

مضى شهرٌ كامل ولم أقترب من ذلك الممر الضيق الذي كنتُ أذهب إليه؛ فقد كان عشقي لها استشاط غضبًا واعتزازي بنفسي قد آلمني أيَّما ألم. إن السيدة ميرداث لم تنصفني في تعاملها معي، إلا أن خلال ذلك الشهر صار الحب في قلبي كالخميرة، فازداد الحب فيه ببطء وكذلك معنى الحنان والرقة لم يكونوا بداخلي من ذي قبل. فالحب والألم يشكلان شخصية الرجل حقًّا.

وبعد نهاية ذلك الشهر، رأيتُ بصيصًا من الأملِ في حياتي بقلبٍ متفهِّمٍ، فقررتُ ألَّا أقترب من ذلك الممر الضيق مرة أخرى. فلم ترني السيدة ميرداث الجميلة، ولم أرها، وبالرغم من ذلك – في إحدى الليالي – ظننتُ أنها لو لم تكن بعيدة عني. وكان سبب ظني

هذا أن كلبًا من كلابها الدانماركية الضخمة لاحقني على الطريق ليحشر أنفه في ملابسي – كما فعل سابقًا معي.

وحتى تلك اللحظة، وعلى الرغم من أنها انتظرتْ وقتًا كافيًا لكي يتركني الكلب ويعود إلى حيث أتى، إلا أنني لم أرها قط. مرَّ الأمر مرور الكرام، وكان قلبي وقتئذٍ لم يشعر بالكآبة واليأس؛ لأن معنى الإدراك والتفهم بدأ يسري في قلبي وينمو يومًا تلو الآخر.

قد مضى أسبوعان وأنا مُرْهَق ووحيد. وفي أثناء تلك المدة، مَرِضتُ مرضًا شديدًا ولم يكن لديَّ أية معلومات عن تلك الخادمة الجميلة. وعقب مُضي الأسبوعين، عزمتُ على أذهب إلى ذلك الممر الضيق ثانيةً وأدخل منه إلى المنزل، وبالتالي ربما ألقي نظرةً عليها.

وبحلول مساء يومٍ ما، قررتُ أن أُنَفِّذَّ ما عقدتُ العزم عليه. خرجتُ من منزلي مباشرةً متجهًا إلى الفجوة، ومن خلالها دخلتُ إلى حدائق منزلها، فإلى بهو المنزل. وعندما اقتربتُ من البَهوِ رأيتُ القناديل مضيئة والمشاعل النارية تضيء المكان بأكمله. كما أن مجموعةً كبيرةً من الناس ترقص، وجميعهم يرتدي ملابس قديمة وغريبة جدًّا. لذلك فَهِمْتُ أنهم يحتفلون لسبب ما. وفي لحظة وقع في قلبي خوف ورعب الشديدان، فخُيِّلَ لي أن ذلك الرقص وذلك الحفل من أجل زفاف السيدة الجميلة ميرداث! لكن كان ذلك ضربًا من الخيال، وكذلك حماقة في التفكير. فإذا كان هناك حفل للزفاف، فسوف ينمو إلى عِلمي ذلك الأمر بالتأكيد. تذكرتُ في تلك اللحظة

أنها قد بلغت سن الواحد والعشرين عامًا، والحفل كان من مراسم انتهاء الوصاية عليها، وكذلك تكريمًا لها.

كان من الممتع أن أشاهد ذلك الحفل، رغم أنني وحيد وقلبي مشتاق وعندي لوعةٌ؛ كان المنظر العام للناس جذَّابًا ومُبهِرًا للعيون. كثيرٌ من تلك المشاعل والقناديل تم تثبيتها حول الأشجار. علاوةً على طاولة كبيرة جدًّا مملوءة بكل ما لذَّ وطاب، ومصابيح كبيرة من البرونز وأخرى من الفضة على أطراف الأعشاب في الحديقة، كما أن الحفل الراقِص كان على الجانب الآخر.

❁❁❁

كانت السيدة ميرداث ترتدي فستانًا في غاية الجمال، فخرجت من المنزل. بدتْ لي بمنظرٍ شاحبٍ – يبدو أن ذلك كان من تأثير الأضواء الكثيرة.

خرجت من المنزل وهي تطوف به باحثةً عن مِقعد لتستريح عليه. في تلك اللحظة، كان يوجد عديد من شباب العائلات الكبيرة بذلك البلد، يتكلمون ويضحكون، وكلٌّ حريص كل الحرص على خدمتها ورعايتها. كانت في المنتصف وهم يقعدون حولها. لكن تأكَّدَ لي أنها شاحبة الوجه حقيقةً ليس بسبب الأضواء – كما خُيِّلَ لي – وإنما لأنها في احتياج إلى شيء ما. ألقتْ نظرة خاطفة على مَن حولها من الرجال. ففي تلك اللحظة، أدركتُ أنها لم تجد حبيبها ضمن الحاضرين؛ إنها في اشتياق إلى قلبه وحبه.

لا يزال السؤال يراودني: لماذا لم يحضر الحفل؟ لا أستطيع أن أُخَمِّنَ ماذا حدث بالضبط، عدا أنه قد دُعِيَ فعلًا لحضور الحفل الرسمي لتكريمها.

فبينما كنتُ أنظر إلى الشباب الذين يجتمعون حولها، كانت الغيرة قد اشتعلت في قلبي، حتى وصل بي الحال إلى أن شعرتُ بأنني مغلوب على أمري! حاولتُ الاقتراب منها حتى أنتزعها من بينهم انتزاعًا، ولأجذبها نحوي لنمشي سويًّا في الحدائق المجاورة – كما كنا نفعلُ في الأيام السابقة – فأشعرُ بالحب منها. وما فائدة تلك الغيرة التي أحرقتْ قلبي؟ رأيتُ بوضوحٍ تام أن الشبابَ لا يهتمون بقلبها أصلًا، أما بالنسبة لي، فكانتْ مراقبتي لها نوع من أنواع الشغف القلبي؛ فقلبي وحيد حزين. بدا لي أن شابًّا كان في الحفل، هو مَن كانت تبحثُ عنه. إنه حبيبها، كما توقعتُ ذلك آنفًا.

ثم ابتعدتُ عن القرب من ذلك الممر الضيق مرة أخرى لمدة ثلاثة أشهر، فأنا لا أستطيعُ تحمل تلك الآلام في كل مرة. ولكن الأمر الغريب حقًّا أن تلك الآلام والأحزان هي التي تدفعني دفعًا إلى الذهاب إلى الممر! بل، علاوةً على ذلك عدم ذهابي إليها يجعلني في حالةٍ أسوأ من الذهاب إليها. شعور عجيب حقًّا! ففي ليلة من الليالي، وجدتُ نفسي هناك عند الممر، وكنتُ في حالةٍ من اللهفة والشوق إلى النظر إلى وجه السيدة ميرداث الجميلة، مما قادني إلى عبور قطعة أرض مُعْشَوْشِبَة تقع بين الممر الضيق والأحراش. فقد أصبحتْ تلك المنطقة – بالنسبة لي – كما لو أنها أرضٌ مقدسةً. كان

ذلك لأنني – في تلك الليلة – رأيتُها، حتى هَامَ قلبي فيها، فلم أستطع السيطرة عليه البتة.

قضيتُ وقتًا رائعًا عند الممر الضيق أنتظرُ وأراقبُ يائِسًا. وفجأة، إذ بشيء ما يتجه إليَّ، حَسَّسَ على فخذي بنعومة، فنظرتُ إلى الأسفل، فإذ به أحد الكلاب الدانماركية الضخمة. يا للهول! ارتجفَ قلبي من الرعب ارتجافًا شديدًا كاد أن ينخلع من شدة الرعب. كانت السيدة ميرداث قد أتتْ قريبًا من الممر، كما توقعتُ ذلك.

وبينما أنتظرُ وأراقبُ ما يحدث حولي بصمتٍ، إذ بصوتٍ خافتٍ بين الأشجار. صوتٌ حزينٌ جدًّا يغني. إنها ميرداث! كانت تغني أغنية (الحب المكسور)، وكانت تتجول في الظلام وحدها.

اِسْتَرَقْتُ السمعَ وبداخلي أسى وحزن شديدين – وقد كانت هي الأخرى كذلك – فأصابني ابتئاس لأنني لم أستطعْ أن أمنعَ عنها ذلك الأسى والحزن. ظلَّتْ موجودة بداخل الممر الضيق وحدها، مما جعل كياني كله في حالةٍ من الاضطراب الشديد.

وعلى الفور، وبينما كنتُ أسترقُ السمعَ، ظهر شيءٌ نحيفٌ أبيض اللونِ من بين الأشجار، فأصدر صوتًا كالصياح، ثم توقفَ قليلًا. كانت العتمة تُمَكِّنُني من الرؤية قليلًا، ولم تكن الرؤية واضحة. يا للهول! ما هذا! ظهرتْ فجأة لي – فبعثتْ في نفسي الأمل مجددًا – وخرجتْ من الممر. إنها هي ميرداث الجميلة. فناديتُها

خافضًا صوتي، وأنا متحمس جدًّا ونفسي بها لوعةٌ لرؤيتها: ميرداث! ميرداث! ميرداث!

❁❁❁

وبهذه الطريقة جئتُ إليها، وكان معي ذلك الكلب الذي رافقني، فربما كانت مزحة أو لعبة! فعندما جئتُ إليها، لوَّحْتُ بيدي لها. لا أعرف لماذا فعلتُ ذلك، وإنما هو ما أخبرني به قلبي الذي احتاجها بشدة، بل ورَغِبَ في تخفيف آلامها أيضًا. ما الذي حدث؟! مدتْ لي ذراعيها، وأتتْ إليَّ تهرول دامعة العينين، وكان لسان حالها ينذر بشيء غريب.

تحركتْ باتجاه ذراعيَّ، ثم مدتْ شفتيها نحوي كالطفل البريء لكي أُقَبِّلها. كانت صادقة جدًّا في حبها لي.

كانت تلك الطريقة المؤدية إلى خِطبتنا – ببساطة – وقد كان الأمر كذلك فعلًا. كان ذلك كافيًا، لكن لا يوجد ثقة في الحب مطلقًا.

أما الآن، أرختْ يديها من بين ذراعيَّ، ثم سِرنا سويًّا إلى المنزل عبر الغابة. كنا نسير بهدوء تام، وكان كل واحد منا يُمسك بيد الآخر كما يفعل الأطفال. سألتُها عن ذلك الرجل الذي كان برفقتها في القصر، فضحكتْ ضحكة جميلة صامتة، ولم أتلقَّ جوابًا منها، وما زلتُ أنتظر جوابها حتى وصلنا إلى البهو.

وعندما وصلنا إلى هناك، أخذتني إلى القاعة الكبرى، ثم انحنتْ لي بطريقة مثيرة وماجِنة للغاية، ساخرةً مني. إن ما فعلته جعلني معروفًا لسيدة أخرى كانت تجلس هناك. كانت تلك السيدة

الأخرى تقوم بوظيفتها في التطريز، وكانت في غاية الاحتشام. وبينما كان الأمر كذلك، كانت هي الأخرى تتصرف بوقاحة.

والحقيقة أن السيدة ميرداث ينبغي ألَّا تفعل ذلك من الضحك الداعر، مما جعلها تحبس أنفاسها طويلًا وهي سعيدة بذلك، بل وتتمايل قليلًا أيضًا. قامت بسحب طبنجتين من السلاحليك بغرض القتال حتى الموت مع سيدة التطريز، والتي لا زالت – وقتئذٍ – مشغولة بعملها. ثم صافحتني وهي تضحك بخبث ودهاء، وكان ذلك جليًّا جدًّا.

وفي النهاية، نظرتْ سيدة التطريز في وجهي فجأةً، فرأيتُ منها شيئًا من النزوع إلى أذيتي؛ فلقد كانتْ لها ملامح الوجه نفسها لذلك الرجل الذي كان مع ميرداث في القصر – وجه حبيبها.

عقب ذلك، شرحتْ لي السيدة ميرداث ما الذي فعلته رئيسة الخَدَم أليسون – صديقتها الحميمة لها – وأنها هي التي كانت ترتدي ملابس رجل القصر، فقامتْ أليسون بذلك الدور لعمل مقلب، خدعة، من أجل الرهان مع شابٍ معينٍ سيكون حبيبها، ربما كذلك. عقب ذلك، أتتْ مُسرعة تجاهي مستاءة جدًّا، فقد امتلأ وجهها غضبًا لم أر مثله قط. كانت غاضبة ومستاءة لأنني وضعتُ يدي على صديقتها، كما قلتُ ذلك.

كان ذلك كل شيء، عدا أنهما خططا لتنكيل بي، وقررا أن يلتقيا كل يوم في المساء في الممر الضيق. كانا يقومان بلعب دور العشاق، مما سَبَّبَ لي غيرة شديدة في قلبي. كانت تلك هي الطريقة التي انتقما

مني بها. فبسبب انتقامهما، عانيتُ كثيرًا من الآلام النفسية والقلبية مدة طويلةً.

❁❁❁

وكما تبادر إلى ذهنك، فإن السيدة ميرداث أبدتْ اعتذارًا لي عما فعلته بي؛ فكان ذلك أمرًا طبيعيًّا بسبب حبها لي، وكذلك حبي لها. وكان ذلك سببًا في ابتعادي عنها، لأنها – كما اعترفت – قلقة ومنزعجة، وعقب ذلك فإنها قررتْ أن تنتقم مني مرة أخرى لأنني انحنيتُ غير مبالٍ لها، وانصرفتُ. وبالفعل قد فعلتُ ذلك.

وفي تلك اللحظة، انتهى كل شيء بأمان تام، وحينئذٍ تملَّكَ قلبي فرحة جنونية. وهكذا لَحِقْتُ بالسيدة ميرداث وقمنا بالرقص سويًّا ببطء شديد حول القصر الفخم.

وبينما كنا كذلك، إذ برئيسة الخَدَمِ السيدة أليسون أصدرتْ صفيرًا من فمها لتعمل على تنبيه ميرداث لشيء ما.

فبعد تلك السعادة الغامرة التي أغدقتهما معًا، فلم يكن بوسعهما بعد الآن أن يفترقا قط، وإنما وجبَ أن يتجولا معًا في كل وقت وكل يوم، هنا وهناك – في كل مكان – في فرح وسعادة إلى أبد الآبدين.

فقد استوعبنا معاني حقيقية من السعادة والبهجة. كان الدافع وراء ذلك أن طبيعتنا ساعدتنا على ذلك، فكلانا يعشق الآخر. فاستوعبنا ذلك الصوت الخفي لضوء النجوم التي بالسماء أثناء الغروب، وذلك الهدوء الذي يَحِّلُ كل مساء على الحصون والقِلاع

التي تُبنَى بمعزلٍ عن سر الظلام. كما أننا استوعبنا تلك المساحات الخضراء الواسعة لحقول المواشي والأغنام تحت ضوء القمر، وفهمنا كذلك لغة شجر الجميز وشجر أخشاب الزان.

استوعبنا إشارات الطبيعة التي هي بمثابة ألغاز للآخرين. تلك السعادة وذلك السرور دفعانا إلى أن نرى راقصة الغروب التي ترتدي ملابس غريبة جدًّا.

وفي ذلك الوقت، حدثتْ لنا مجازفة مؤكدة كادتْ أن تودي بحياة ميرداث الجميلة. منذ يوم – من ذلك الوقت – كنا نتجول، مثل أي وقت مضى، وكمثل أي طفلين بريئين، نبَّهتُ ميرداث أنه لا يوجد في رفقتنا إلا كلبين اثنين فقط من كلابها الدانمركية الضخمة، فأخبرتني أن ثالثَ الكلابِ في بيت الكلاب لكونه مريضًا.

ومع ذلك، ورغم أنها كانت تخبرني كل شيء بشق الأنفس، لدرجة أنها أوشكتْ على البكاء، ثم نبهتني لشيء ما. يا للهول! إنه الكلب الثالث جاء متجهًا إلينا يركض، وكان يركض بطريقة غريبة على خلاف عادته. وفي لحظة ما، صرختْ ميرداث بسبب أن ذلك الكلب كان مسعورًا. فقد رأيتُ ذلك الكلب كأنه وحش يسيل لعابه وهو يركض متجهًا إلينا.

وبسرعة البرق، لم أنتبه إلى ما حدث إلَّا بعد أن هجمَ الكلبُ علينا، وبدأ يقفز عليَّ. أما ميرداث – تلك السيدة الجميلة – فقد ألقتْ بنفسها على الكلب حتى تنقذني من افتراسه لي، وكانت قد أعطتْ الإشارة للكلبين الآخرَين كي يساعداهما على ذلك الكلب

المسعور. لكنها قد نال منها ذلك الوحش المسعور، عضَّها في الوقت التي كانت تحاول فيه جاهدةً إبعاده عني. وعلى الفور، انقضتُ على عنق الكلب وجسده، فكسرتُ عنقه، فمات الكلب في الحال، ثم أمسكتُ به وألقيتُه على الأرض. عقب ذلك مباشرةً، قمتُ بسحب السُّمِ من الجروح التي نتجتْ عن هجومِ الكلب المسعور على ميرداث.

قمتُ بذلك بكل استطاعتي، بالرغم من أنها كانت تعترضني في ذلك. ثم بعد ذلك، حملتُها على يديَّ، فركضتُ بقوةٍ طول الطريق حتى أصل إلى بهو القصر. ثم أحضرتُ أسياخ حديدية ساخنة لأضعها على الجروح فتحرقها، وقد كان الأمر كما فعلتُ. وهكذا، عندما جاء الطبيب، قال لي:

- إنك أنقذتها باعتنائك بها وبما فعلتَ، إذا تم شفاؤها على خير.

في الحقيقة هي التي أنقذتني حينما ألقتْ بنفسها عليَّ حتى لا أُصاب بأذى من الكلب المسعور.

لقد كان وجهُها شاحبًا جدًّا، لكنها ابتسمتْ في وجهي حتى تزيح عني مخاوفي وقلقي بشأنها، وقالت لي:

- سأستعيد كامل صحتي قريبًا، وسوف تلتئم جروحي سريعةً.

لكن الوقت مَرَّ طويلًا قبل أن يتمَّ شفاؤها كما ينبغي.

ولمَّا استعادتْ ميرداث عافيتها، حددنا ميعاد عُرسنا. ولا زلتُ أتذكرُ ذلك اليوم السعيد، حين كانت تقف هناك وقد ارتدتْ فستان

العُرس في رشاقة وجمال لا يوصفان، وجمال عينيها الهادئتين، وقدميها الصغيرتين الرقيقتين، وشفتيها مثل الكرز، وسِحر ابتسامتها البريئة. إن هذا ليس إلا نبذة عما رأيتُه في ذلك اليوم السعيد، فينبغي تمجيد الخالِق عند رؤية الجمال.

وهكذا تزوجنا.

۞۞۞

ميرداث – حبيبتي الجميلة – كانت على فراش الموت! لم أستطع أن أكبحَ ذلك الذي يُفَرِّقُ الجماعات وهادم اللذات حتى لا ينزع مني حبيبتي. سمعتُ صرخة طفلٍ صغيرٍ، وصرخة أخرى أعادتْ زوجتي إلى الحياة. تلك الصرخة جعلتها تشير بيديها المرتعشتين إلى غطاء السرير كي أُلْحِفُهَا[١] به.

جَثَوْتُ على ركبتيَّ بجانب حبيبتي ميرداث الجميلة لأواصل اهتمامي بها، ومسكتُ يديها برفقٍ، لكنهما لا يزالان يرتعشان يشيران أنهما في أشد الحاجة إلى مزيدٍ من أغطية السرير. ثم نظرتْ إليَّ وعيناها يتوسلان إليَّ حتى أفهم ما تحتاجه في تلك اللحظة، فإنها لا تتحدث إليَّ؛ بل إنها إشارات باليدين وحسب.

ثم خرجتُ من الغرفة، فناديتُ المربيةَ، وطلبتُ منها أن تأتي لي بالطفل من الغرفة الأخرى، فجاءتني به ملفوفًا في ثوبٍ طويلٍ أبيض.

---

١ أُلْحِفُ: من (أَلْحَفَ)؛ أي غطَّاه باللِّحاف (غطاء السرير) ونحوه.

فرأيتُ في عينيها بهجةً غير عادية ونظرةً مليئة بالحب والحنان. فأومأتُ للمربية أن تدنو بالطفل إلى زوجتي حبيبتي، وقد فعلتْ. حرَّكتْ زوجتي يديها حركةً ضعيفةً تجاه الطفل، ففهمتُ أنها ترغب في ملامسته ورؤيته. فأشرتُ إلى المربية أن تعطيني إياه، فضممتُه بين ذراعيَّ، ثم خرجتْ هي من الغرفة. فلم يبق إلَّا إيانا وحسب. ثم جلستُ على السرير برفق شديد، وحملتُ الطفلَ ودنوتُ به إلى حبيبتي، بحيث لمسَ خَدُّ الطفلِ الصغير خَدَّ أمه وهي تحتضر على فراش الموت. لم أعطها إياه بين ذراعيها، بل كان بين ذراعيَّ حتى لا أُثْقِلَ عليها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وأما الآن فقد لاحظتُ أن زوجتي الحبيبة ترغب بشدة في معانقة وليدها، لذا قرَّبتُه أكثر منها، ووضعتُ الطفلَ بين يديها المرتعشتين. نزلتُ على رغبةِ حبيبتي، ووضعتُه على صدرها – بحذرٍ شديدٍ – حتى يتسنَّى لها أن تنظرَ إلى عيني وليدها. وما هي إلَّا لحظات معدودة وأغلقتْ ميرداث الجميلة عينيها ورقدتْ في سلام.

أخذتُ الطفلَ وأعطيتُه للمربية، التي كانت منتظرة خلف الباب، فأغلقتُ البابَ وعدتُ إلى غرفتي؛ لأننا حضرنا تلك اللحظات الأخيرة وحدنا. كانت يد زوجتي بيضاء ساكنة لا تتحرك نهائيًّا، لكن الآن بدأتْ تتحرك بهدوء باحثةً عن شيء ما. فمددتُ يديَّ إليها، وأمسكتُ يديها بهدوء شديد حتى مرَّ قليل من الوقت.

نظرتُ إليها، فإذ بها قد فتحتْ عينيها، وبدا عليها علامات الذهول والاندهاش. ثم دحرجتْ رأسها على الوسادة فوجدتني

أمامها. انطفأ في عينيها آلام النسيان. نظرتْ إليَّ مُحدقةً، فامتلأت تلك النظرة بكل معاني الحنان والرومانسية.

دنوتُ منها قليلًا، فوجدتُ أن عينيها تقولان لي: ضمني بين ذراعيك في تلك الدقائق القليلة. فجئتُ إلى الفراش في سكونٍ تام، وحملتُها على يديَّ حتى أجلستها على هيئة مريحة. إن الحب هو الذي دفعني لحملها على ذراعيَّ على حالتها تلك، وهو الذي منحها ذلك الهدوء التام في تلك الدقائق المتبقية لنا. وهكذا كنا معًا – في تلك اللحظة – التي بدا لي فيها أن الحبَّ ربما أبرمَ اتفاقًا مع الموتِ على أن يتأخر قليلًا. ربما قد أخبره الحب عن حقيقة مشاعرنا فلم تلفظ أنفاسها الأخيرة إلى الآن. خاطبتُها هامسًا في أذنيها، فإذ بعينيها تستجيب لهمساتي فإن تلك اللحظات الجميلة، والمرعبة والغريبة كذلك، مضت في سكون أبدي.

وفجأةً، همستْ حبيبتي ميرداث الجميلة بشيء ما، فطأطأتُ رأسي حتى أصغي إلى ما تهمس به؛ لأنها تحدثتْ مرة أخرى هامِسةً بشيء لم أفهمه. ما الذي همستْ به! نادتني باسمي التي كانت تُلقبني به خلال الأشهر التي قضيناها سويًّا في غاية الفرح والسرور.

أخبرتُها ثانيةً بما في قلبي من حب استحوذت هي عليه وحدها، وينبغي للحب أن يتجاوز الموت. وفي لحظة، خرج ضوء من عينيها! قد تلفَّظَتْ أنفاسها الأخيرة بين ذراعيَّ ...

جميلتي ... حبيبتي ميرداث!

❁❁❁

الفصل الثاني

الحصن الأخير

منذ ذلك الحين، وبعد أن ماتت ميرداث، حبيبتي، كم عانيتُ من الآلام بعد أن تركتني وحيدًا في هذا العالم. عانيتُ كثيرًا من آلام فراقها والاشتياق إليها، فلا كلمات تُقال بعد الذي عانيتُه. امتلكتُ الدنيا بأسرها حين أحببتُها ورافقتُها، بل أزيد من الشعر بيتًا أن الحبَّ كان سببًا حقيقيًّا في معرفة معاني السعادة، والسرور، ومتعة الحياة أيضًا. ورغم ذلك، إن الحبَّ ذاته هو مَن جعلني أتذوقُ معاني العُزلة، والوِحدة، والتعاسة أحيانًا كثيرةً. أمره عجيب ذلك الحب!

ولكن، أَنَّى لي أن أعود إلى قلمي ثانيةً! في الآونة الأخيرة، نما لي أمل عجيب مدهش أنني استيقظتُ أثناء نومي في الليل لأرى مستقبل هذا العالم، فرأيتُ أشياء عجيبة وعجائب غريبة. كان ذلك مصدرًا آخرَ لاستعادة معنى السرور في الحياة. وفيما يتعلق بذلك؛ اكتشفتُ وعدَ المستقبل، كما تفقَّدتُ – في أحلامي – تلك الأماكن التي كانت في رحم الزمن. كنا نجتمعُ سويًّا، ونفترق، ثم نجتمعُ مرةً ثانيةً سويًّا من أجل تحطيم تلك الآلام كما لو أننا نقطِّعها إربًا. ثم نجتمعُ ثانيةً بعد مرور سنين عجيبة وغريبة، ونحن في أتمِّ السعادة والسرور.

❖❖❖

إن لهذه القصة غرابة تفوق الخيال لما رأيتُه، لذلك من الضروري أن أعرضَ حقيقتها. ولأجل ذلك ربما أحظى ببعض الارتياح القلبي، وكذلك أمنحُ أملًا لبعض الفقراء من البشر الذين

تكبَّدوا آلامًا كبيرة، بالرغم من أنني أحمل تلك الآلام القاسية والمخيفة من شدة حنيني واشتياقي لحبيبتي التي رقدتْ في سلام.

وبعد أن يقرأ بعضٌ من الناس ذلك، فسيقول لي: إن هذا لم يكن أصلًا! وربما يجادلني البعض الآخر. أما أنا فلا أقول شيئًا سوى: اقرأ! اقرأ ما كتبتُه، ثم انظر مباشرةً معي إلى معنى (البقاء/ الأبدية) حتى نصل إلى مداخله. ومن ثم، انظر إلى ما أخبركم به:

إنه في هذه المرة الأخيرة لتصوراتي التي كنتُ سأقولها لم تكن كما رأيتُها في حُلمي، لكنها كانت عندما استيقظتُ هناك في الظلام – في مستقبل هذا العالم – فرقدتْ الشمس في سلامٍ كذلك وانتهى أمرها. أما فيما يتعلق بي، فقد استيقظتُ مؤخرًا في هذا المستقبل كي أستشرف آفاقه وأعلم أسراره. إن عصرنا الحاضر كان يفكر فيما مضى من الأحلام التي أدركتها روحي وفَهِمَتها على أنها حقيقية وواقعية.

بعدما صحوتُ على المستقبل، وعلى ظلامٍ دامسٍ، بدا لي تمامًا أن العالمَ انطوى تحت طيات ذلك الظلام الدامس. كما أنني رأيتُه بالقرب مني تمامًا؛ بل طَوَّقَني بالكامل كذلك، فلونه رمادي غير واضح البتة. أما الآن، فسينقشعُ ذلك اللون ويتلاشى تمامًا بالرغم من كونه سحابًا مُكْفَهِرًا[١]. كما أنني سوف أُطِلُّ على عالَمٍ من الظلام الدامس. إن ذلك العالَم مُضَاءٌ هنا وهناك – في كل مكان – بمناظر

[١] مُكْفَهِر: هو السحاب الغليظ الأسود.

غريبة جدًّا. وبدخولي إلى المستقبل، تنبَّهتُ إلى أنني على معرفةٍ كاملةٍ بتلك الأشياء التي أضاءت على أرض الظلام. فالوقت الذي يصحو فيه الإنسان من نومه كل صباح، فهو يدرك تمامًا الوقت الذي استيقظ فيه، وأين يعيش، كما يعرف الأشياء بمسمياتها؛ أي يكون على وعي تام بما هو عليه وقتئذ. وفي الوقت نفسه، كانت لديَّ معرفة شبه واعية عن هذا الحاضر لبداية هذه الحياة، وهي التي أعيشها الآن وحدي تمامًا.

۞۞۞

كانتْ معرفتي الأولية بذلك المكان، عندما كنتُ شابًّا في السابعة عشر من عُمري؛ حيث تسعفني ذاكرتي أنني حينما استيقظتُ لأول مرة، أو جئتُ – كما قد يُقال – وحدي إلى ذلك المستقبل. وجدتُ نفسي واقفًا في إحدى كُوَّات[١] الحصن الأخير من ذلك الهرم الأكبر (المصنوع من المعدن الرمادي). إن ذلك الهرم الأكبر ما زال يحتفظ بالملايين السابقة لهذا العالم من قوى القتلة ونفوذهم.

وبالتالي؛ فأعرفُ ذلك المكان معرفةً تفصيلية حتى إني أصدق أنه لا أحد هنا يعرف ذلك المكان مثلي. وسبب حديثي المفرط عن ذلك المكان هو أن كثيرًا من الذين يقرأون لا يعرفون طبيعته في وقتنا الحالي. ولأجل ذلك؛ وقفتُ هناك وألقيتُ نظرةً على ما حولي. كان عُمري – في ذلك الوقت – أصغر من الآن؛ أي في سن مبكرة، وهو

[١] كُوَّات: مفردها (كَوَّة/ كُوَّة)، وهي خرق في الجدار، أو فتحة صغيرة في الحائط للتهوية.

السن الذي حصَّلتُ فيه خبرة حياتية خلال تلك السنين التي خلتْ من حياتي هناك. وعلى الرغم من ذلك – وقبل تصوري الأولي – لم أكن أعرف شيئًا عن الوجود المستقبلي. وبعد؛ استيقظتُ كما يستيقظ الإنسان العادي هنا في فراشه بعد أن تُوقِظَه أشعة الشمس في الصباح. ومع ذلك، وبينما كنتُ واقفًا في تلك الكَوَّة[١] الضخمة، صارتْ لديَّ تلك المعرفة – أو الذاكرة – عن حياتنا الحالية في داخل أعماق نفسي، التي أحاطتني بهالةٍ من الأحلام ممزوجة بحنين إلى شخص ما. تلك الهالة من الأحلام معروفة لي باسم ميرداث، حسب ما أتذكر.

وكما قلتُ سابقًا إن ذاكرتي أسعفتني كي أتذكر أنني وقفتُ في كَوَّةٍ مرتفعة على جانب الهرم الأكبر، ثم نظرتُ إلى خارج الهرم في اتجاه الشمال الغربي باستخدام مِنظار غريب في هيئته.

كنتُ –وقتئذٍ – مليئًا بحيوية الشباب المحفوفة بالمخاطر، لكني في الوقت نفسه كان الأمر بالنسبة لي مخيفًا بعض الشيء.

وكما تعلمون أنني امتلكتُ تلك المعرفة والمعلومات الكاملة عن ذلك الأمر الذي أُحَدِّثُكم عنه الآن هي ناجمة عن طيلة السنوات الماضية من حياتي في ذلك الحصن.

ومع ذلك – حتى هذه اللحظة – لم يكن هذا الرجل في الوقت الحاضر على علم بهذا الوجود المستقبلي. والآن، صارت تلك

[١] الكَوَّة: الفجوة.

المعرفة التي امتلكتُها فعليًّا بشأن حياتي التي قضيتُها في تلك الأرض الغريبة، إلَّا أن بداخلي معرفة أو إدراك غامض عن زمننا الحاضر. وربما كانت المعرفة غامضة فيما يتعلق ببعض الناس أيضًا.

اتجهتُ ببصري إلى الاتجاه الشمالي الغربي مستخدمًا ذلك المِنظار الغريب في هيئته، فرأيتُ منظرًا طبيعيًّا قد رأيتُه – بالفعل– وتفحصتُه تمامًا طيلة تلك السنوات الماضية من تلك الحياة. بعدها نما إلى معرفتي أسماء الأشياء التي رأيتُها، وكذلك أوصافها، كما استكشفتُ جميع المسافات من النقطة المركزية للهرم. لم يكن للهرم طول ولا عرض؛ بل كان مصنوعًا من معدن مصقول بداخل غرفة متعلقة وخاصة بعِلم الرياضيات، تلك الغرفة التي كنتُ أذهب إليها يوميًّا أثناء دراستي.

نظرتُ ثانيةً إلى الاتجاه الشمال الغربي، فرأيتُ وَهَجَ النارِ قويًّا يخرج من حفرة حمراء اللون في تلك المساحة الشاسعة التي ظهرتْ من المِنظار. فإذا ما نظر الناظِرُ من ذلك الاتجاه، فإنه يرى ذلك الوهج الناري بوضوح تام. ذلك هو أول شيء رأيتُه منذ البداية وحتى لحظة فتح بوابة البقاء (الخلود). كل ذلك تواردَ إلى أفكاري وقتئذ، فكلما نظرتُ من خلال المِنظار، تذكرتُ كلمات الشاعر القديم آيسوربيث[١]: (إن المستقبلَ مذهلٌ بشكل لا يُصدق بالنسبة لوقتنا الحاضر). وعلى حين غِرَّةٍ، يبدو أنهم كانوا على خطأ؛ لأنني قمتُ بالتحديق في وجودي بشكل لافت للنظر. كما رأيتُ ضوءَ الشمسِ

---

[١] اسم الشاعر بالإنجليزية Aesworpth.

وأُبَّهَة[١] هذا الزمن الحاضر الذي نعيش فيه. قد كنتُ مَشْدُوهًا[٢] حينئذ.

❖❖❖

وهنا ينبغي أن أوضِّحَ معنى ذلك، وهو أن مع استيقاظي في هذا الزمن، ودخولي المفاجئ إلى تلك الحياة – أي الشاب الذي كان واقفًا هناك في تلك الفجوة[٣] – أرشدني عندئذ إلى معرفة هذه الحياة المستقبلية. تلك المعرفة أبدتْ له رؤية عن البدايات الأولية عن ما هو البقاء (الخلود) في فجر هذا العالم. أووه! أخشى أن يكون ذلك التوضيح ليس بالدرجة الكافية، على الرغم من أنني وهو نفس الروح التي كانت ترى في ذلك التاريخ الغامض لتلك الحياة (الحياة التي أعيشها بالفعل الآن). أما أنا في هذا الوقت أراقبُ الحياة التي سوف أعيشها بعد الآن. كيف ذلك؟! أووه! إنه أمر في غاية الغرابة.

وهكذا كان الأمر (كنتُ حديثَ الولادةِ في ذلك الوقت في المستقبل) حيث كنتُ كثير الشوق والرغبة إلى حبيبتي بكل قوة حول تلك الحياة الجديدة. عِلمًا أنها كانت لي، وربما قد تحيا مرة أخرى، وكذلك أنا. لذلك؛ كما قلتُ سابقًا، أنني كنتُ كثير الشوق إليها والرغبة فيها، فوجدتُ نفسي أنصت.

---

١ أُبَّهَة: العظمة والفخامة والروعة.

٢ مَشْدُوه: مدهوش، وهي من الشَّدَه؛ أي التعجب والحيرة والدهشة.

٣ متحدثًا عن نفسه في الماضي.

ومنذ ذلك الوقت، فصاعدًا، كنتُ مَشْدُوهًا ومذهولًا من كل ما عرفتُه وما خمَّنتُه، بل وبكل ما أحسستُ به أيضًا. وطوال الوقت الذي ازداد فيه حنيني وشوقي إلى تلك السيدة التي فقدتُها في الأيام الأولى. كانت تلك السيدة تغني لي في تلك الأيام الخوالي المليئة بالنور. كما أنني استرجعتُ تلك الأفكار الخاصة بمزيدٍ من الشغف وبتعجب مليء بالحسرة والندامة، ثم انتهتْ واختفتْ في دوامة النسيان.

أما في الوقت الحاضر، فقد انتقلتُ من الوجع الذي أَلَمَّ بي من ذكريات أحلامي إلى حالة من الغموض الذي لا يمكن تخيله على أرض الظلام، والتي شاهدتُها عبر تلك الكَوَّة الكبيرة في جدار الهرم الأكبر. ولأنه لا يوجد شيء أتى قط بالتأمل في كافة الأسرار والألغاز البشعة. وذلك؛ فإن الشباب والشيوخ الذين شاهدوا تلك الأسرار منذ البداية وحتى النهاية – أعني تلك البشاعة المُتَّشِحَة بالسواد على أرض الظلام – كانت هي ملاذ البشرية في الغار.

❊❊❊

يوجد على يمين الحفرة الحمراء أخدود طويل متعرج متوهج، والذي عرفت فيما بعد أن اسمه وادي النار الحمراء، وبعد ذلك الوادي يوجد عديد من الأميال الكئيبة على أرض الظلام. تلك الأميال التي وصل من خلالها ضوء ضعيف من قاع النار الزرقاء.

كان يوجد على الأراضي المجهولة العديد من البراكين المنخفضة، التي كانت تضيء بعيدًا في العتمة الخارجية على التلال

السوداء، حيث أضاءت المصابيح السبعة (طال عليهم الأمد فلم تُضاء تلك المصابيح من قبل). كما أن عدسات المِنظار لم تصل إلى تلك المصابيح السبعة، أو أن مغامِرًا ما اقتحمَ ذلك المكان من قبل، لم يخبرنا بشيء البتة عنها. وهنا اسمحوا لي أن أقول: إن أسفل مكتبة الحصن العظيمة كانت توجد سجلات لكل هؤلاء – بكافة ما اكتشفوه – الذين خاضوا غِمار المخاطرة على أرض الظلام، فلم يخاطروا بالحياة فقط؛ بل بروح الحياة.

كانَ يوجدُ – على جهة اليمين – بيت الصمتِ على تلٍّ منخفض بعيد جدًّا. وكان في ذلك البيت مصابيح كثيرة جدًّا، لكن لا صوت به ولا حياة؛ وذلك لأن الأمد قد طال عليه هو الآخر من غير حياة، وكان المكان قد شاع فيه الصمت التام. فشكَّلَ هذا البيت خطرًا عظيمًا على تلك الأراضي الموجودة هنا.

يدور حول البيت الصامت طريق ملتوٍ. ذلك الطريق الذي خرج من الأراضي المجهولة بالقرب من مقر القُوطيين[1]، حيث كان يوجد ضباب مضاء باللون الأخضر. لا شيء معروف كُنْهه أو ماهيته. ومنذ أمد بعيد، ومن هذه النقطة، قد كُتِبَتْ آلاف الكتب.

[1] الكلمة في النص المصدر الإنجليزي هي Ab-Humans، وهي في الدراسات الأدبية للأدب القوطي تشير إلى (الجسد القوطي). هم ليسوا بشرًا، لكنهم كائنات تشبه مصاصي الدماء والمستذئبين (أي كائنات فيها صفات بشرية وصفات الذئاب). هذا المصطلح الإنجليزي يشير إلى أنهم هم السلالة المتحولة المنحدرة من البشر.

أتذكرُ الآن أن قدميَّ قد وطأت الطريق الرئيسي، والذي امتدَّ على واحدٍ من الألف على هضبة الحصن الكبير. وهذا يقع على بُعد ستة أميال وثلاثين قامة[١] أعلى سَهل أرض الظلام. ومِنْ ثَمَّ، وفي دقائق قليلة، كنتُ عند السور الجنوبي الشرقي، ثم صوَّبْتُ أنظاري باتجاه ثلاثة تجاويف من النار الفضيَّة عبر تلك الكَوَّة التي كانت في جدار الحصن. أما من جهة اليمين ومن جهة اليسار، فقد كان هناك وحش (في هيئته كهيئة القرفصاء) أضاء المشاعل، وكان ضوء تلك المشاعل كافيًا حتى كشف عن الرأس الأمامي الخشبي لذلك الكائن البهيمي الوحشي الذي لا ينام أبدًا.

أما من الناحية الشرقية، وقفتُ هناك أثناء وقت النوم الساكن الهادئ، فسمعتُ صوتًا فظيعًا من بعيد من الناحية الشرقية التي لا ضوء فيها ولا صوت. أما الآن – في الوقت الحاضر – سمعتُ ضحكة مريبة غريبة بسبب صوت الرعد بين الجبال. ونظرًا لأن هذا الصوت المريب صدر من تلك الأراضي المجهولة من الجانب الآخر لوادي كلاب الصيد، فإننا أطلقنا على هذا المكان اسم: أرض الضحك المهيب. وعلى الرغم من أنني قد سمعتُ ذلك الصوت كثيرًا جدًّا، إلا أنني لم ينتابني رعب أو خوف أو مهابة قط، كما انتاب كثيرًا من الناس في هذا العالم.

---

[١] القامة: هي وِحدة الطول المستخدمة في الولايات المتحدة الأمريكية، وتُستخدم عادة لقياس أعماق المياه.

لم ألق بالًا بذلك الصوت الضاحِك المتكرر. وعندما انزوى ذلك الصوت تجاه الجانب الشرقي المعتم، قمتُ بتغيير اتجاه مِنظاري إلى حفرة العمالقة، والتي تقع في جنوب تنانير[١] العمالقة. كان الضوء الناتج عن تلك التنانير أحمر اللون ومتبددًا، تلقي فوهة تلك الحفرة لهيبًا متوهجًا، مما دفع العمالقة دفعًا إلى الزحف خارج تلك الحفرة النارية. فلم تكن الرؤية بالنسبة لي واضحة كما ينبغي، وذلك بسبب وهج ذلك اللهيب الشديد الذي كان يتمايل. كانت العمالقة تؤدي مهامًا التي لم أدرِ ما كُنهها أو ماهيتها. كان ذلك لغز آخر من ألغاز أرض الظلام.

أما بالنسبة للجزء الخلفي من حفرة العمالقة، فبينه وبين وادي كلاب الصيد، كان يوجد أرض رأسية[٢] سوداء اللون. اخترق ضوء التنانير حافة الحفرة، فبدأتْ الرؤية تتضح شيئًا فشيئًا، فظهرت تلك العمالقة فوق الحافة تنظر، ثم تعود مرة أخرى إلى العتمة. وعلى مر تاريخنا كله، لم تمر ساعة واحدة إلا وقد خرج مخلوق من تلك المخلوقات، لذلك حددتُ تلك المنطقة وسجلتُها على الخريطة تحت عنوان: (الأرض الرأسية التي يسكن بها المخلوقات الغريبة المتشابهة).

---

[١] تنانير: جمع تَنُّور، وهو نوع من الأفران الطينية التي تُستخدم لعمل الخبز.

[٢] الأرض الرأسية: هي ترجمة حرفية للكلمة الإنجليزية Headland، وهي أرض غير محروثة محاذية لأطراف الأتلام أو قريبة من السياج. أو هو (لسان) من الأرض داخل البحر.

وهكذا فإنه من الممكن أن أستمر، لكن أخشى الملل والإرهاق. وباستثناء ما أخشاه، فإنه يجب أن أخبر عن كل شيء رأيتُه في تلك المنطقة. وحتى تلك اللحظة، دونتُ جميع أفكاري – والتي كانت واضحة تمامًا وكانت تجول بخاطري في صمت – والتي كان يتخللها مزيج من الرعب والفزع، مما جعلني أدرك تمامًا أن جسدي ليس موجودًا في تلك اللحظة التي أكتب فيها الآن. وبكلمات أخريات واضحات:

بعد فترة وجيزة، كنتُ وحيدًا على طول الطريق في الليل، فرأيتُ شيئًا ما يرتدي معطفًا يغطيه كاملًا، يسير إلى الأمام، لا يلتفت يمينًا ولا يسارًا. إن جميع العمالقة كانت هيئتهم مثل ذلك، ويتجهون إلى الأمام كذلك، ولا يلتفتون يمينًا ولا يسارًا. قيل إن تلك الكائنات التي بالحصن لا يمكن أن تسبب أذًى لأي إنسان، إذا ما حافظ الإنسان على مسافة كافية آمنة بينه وبينهم. إلَّا أنه من الحكمة ألَّا يقترب منه أحد أصلًا. هذا ما يمكن أن يُفْعَلَ فعلًا.

هكذا كان الأمر. كانت عيناي تحدقان في كل ما حولي أثناء بحثي عن الطريق، فتجاوزتُ ذلك الكائن الصامت الأخرس، ثم ابتعدتُ عن المكان المُضاء بأضواء غريبة مريبة، والذي كان يستمد الضوء من ثقوب النار الفضيَّة. وعبر المنظار الذي استدار إلى جهة الجنوب من القصر، شاهدتُ وحشًا ضخمًا. ذلك الوحش الضخم كان هو الفريد من نوعه في تلك الأراضي الظلماء (المرئية الظاهرة في المِنظار). كما أن المِنظار أظهر كشفًا لي عما يُطلق عليه: حارس الجنوب على هضبة ما. كان يقعد على تلك الهضبة ذلك الوحش

الضخم على هيئة القرفصاء، وقد أحنى ظهره قاعِدًا على قبةٍ متوهجةٍ باليةٍ.

❁❁❁

أعلمُ أنَّ عديدًا من الكتابات قد كُتِبَتْ بشأن هذا الحارس الغريب المريب الضخم؛ وذلك لأنه قد خرج من الأراضي المجهولة المعتمة منذ ملايين السنين. وقد لاحظها أولئك الرجال الذين أُطْلِقَ عليهم المونستروواكانز[1] وسجلوا كل شيء بالتفصيل بشأن ذلك الحارس. ولذلك فإنه من الممكن أن نبحث في مكتباتنا، ونعرف تاريخ ذلك الوحش في الماضي، وكيف جاء.

وما زلتُ أتذكرُ هؤلاء المونستروواكانز الذين كانت مهامهم الاهتمام بالجيوش الجبارة لحراسة الكائنات الممسوخة والحيوانات المتوحشة التي تحيط بالهرم الأكبر. علاوة على ذلك، لديهم معرفة كاملة بكل ما يتعلق بشأن الحراسة، وكذلك تدوينه في السجلات.

ولمعرفة المزيد عن حارس الجنوب، فكما قلتُ سابقًا، إن مليون سنة قد مضتْ على خروج ذلك الحارس الجنوبي من ظُلمة الجنوب، وترعرع تدريجيًّا خلال عشرين ألف سنة. كان ذلك بطيء للغاية لدرجة أنه لم يعد بإمكان أي إنسان أن يلمس ذلك.

---

[1] المونستروواكانز: تعريب للكلمة الإنجليزية Mostruwacans، وهم مجموعة من الكائنات مرسومة (رسومات إيضاحية) في هذه الرواية لـ ويليام هوب هودسون.

وعلى الرغم من ذلك فقد تحرك ذلك الحارس حتى وصل إلى الطريق الموصل إلى الحصن عندما ظهرتْ القبة المتوهجة فوق الأرض. ظل هذا على طول طريق الكائن الممسوخ، حتى إنه – ومن خلال مفهوم الخلود/ البقاء – كان يتطلع إلى الهرم وينظر إليه عبر تلك القبة المتوهجة. لكن يبدو أنه لا قوة لديه أو طاقة ليتقدم ويقترب.

ولأجل هذا، دُوِّنَتْ سجلات كثيرة لإثبات أن هناك قوى أخرى غير قوى الشر للعمل على أراضي الظلام، والتي هي على مقربة من الحصن الأخير. هذا ما كنتُ أظنه دائمًا هو الصواب من الآراء. وبالفعل، ليس هناك شك حول ذلك الأمر؛ لأن هناك كثير من الأشياء أدركتُها في ذلك الوقت، بالرغم من أن تلك القوات الظلامية كانت حرة طليقة بشأن نهاية البشرية. لذا؛ فإنها كانت حرة طليقة لتخوض غِمار الحرب في مجابهة الذعر والخوف، رغم أن ذلك يحدث بطريقة أكثر غرابة وغير مفهومة للعقل البشري. وانطلاقًا من هذه النقطة، سأسرد حالًا المزيد من التفاصيل.

وهنا، وقبل أن أكمل السرد عما حدث، اسمحوا لي أن أعرض بعضًا من تلك المعرفة المستقبلية التي ما زالتْ عالقة في ذهني بوضوح تام. إن ما يتعلق بمجيء تلك الكائنات الممسوخة المتوحشة وقوى الشر، لا يمكن لأي إنسان أن يقطع الأمر فيه بالقول الفصل؛ وذلك لأن خُبث تلك الكائنات بدأ قبل تدوين تاريخ الحصن الضخم. أجل، وحتى قبل أن تفقدَ الشمسُ قوتها على انبعاث الضوء. ومع ذلك كله، فينبغي ألَّا نقطع في الأمر بشيء

محدد؛ فهذا يعني أنه في ذلك الزمن الماضي البعيد، لم يكن للسماء أي نوع من أنواع الدفء لهذا العالم. لذا؛ يجب أن ننتقل إلى ما هو مؤكد من تلك المعرفة التي اكتسبتُها، ونترك ما ليس مؤكدًا.

يجب من ذلك أن يكون الشر قد بدأ بالفعل في تلك الأيام الخوالي الظلماء (أشبِّهها بتلك القصة التي لا أؤمن بها وهي قصة الخلق). كان يوجد سجل مُهْمَل من تلك السجلات التي تحتوي على علومٍ قديمةٍ (ما زالتْ تلك العلوم بعيدة جدًّا عن مستقبلنا)، التي كانتْ مصدرًا من مصادر عدم الاستقرار للقوى الخارجية غير القابلة للقياس، بل وسمحتْ بعبور حاجز الحياة لبعض من تلك الكائنات الممسوخة المتوحشة والمخلوقات القوطية (الآب هيومان). وهكذا، تجسدت تلك المخلوقات القوطية وتطورتْ، والتي هي الآن تحاصر بشر هذا العالم. وحيث إنه لم تكن هناك – وقتئذ – أية قوى بشأن الوجود المادي الحقيقي، فقد سُمِحَ لقوات مرعبة ومخيفة بأن تكون لها القدرة على التأثير على حياة الروح البشرية. إن هذا التزايد المخيف للغاية لتلك الكائنات، وهذا العالم الذي امتلأ بالخروج عن القانون والتزايد في التفسخ الأخلاقي، كانت توجد جماعة من الملايين البشرية قد اجتمعوا وقرروا بناء الحصن الأخير، وانتهى الأمر إلى ما قد كان عليه منذ البداية. وهذا ما لا يمكنني أن أوضحه، وليس من المناسب أن أترقب حدوثه؛ وذلك لأن مهمتي هنا جليلة للغاية، والتي تتجاوز قوة المهارة البشرية. وعندما شيَّدَ البشرُ الهرمَ الأكبرَ، كان به ألف وثلاثمائة وعشرون طابقًا. ذلك الهرم

قد تجاوز ارتفاعه سبعة أميال، أو يزيد قليلًا. كان في أعلاه برج يوجد به حارس (وهو مِن المونستروااكانز).

وبعدما شُيِّدَ ذلك الحصن الأخير، جعل البُنَاةُ لأنفسهم منزلًا كبيرًا، وكذلك شيدوا مدينةً بداخله. ومن هنا، قد بدأ التاريخ الثاني من هذا العالم. ثم أَنَّى لي أن أُدَوِّنَ ذلك التاريخ كله في عدة صفحات صغيرات؟!

لاحقًا؛ على مدى مئات وآلاف السنين، نشأ في الأراضي الخارجية، الخارجة عن سيطرة حارس الحصن، أجناس عملاقة من مخلوقات وكائنات فظيعة ومخيفة للغاية. تلك الأجناس العملاقة نصفها بشري، والنصف الآخر بهيمي وحشي. قامتْ تلك الكائنات بشن حرب على الحصن، إلَّا أنهم تلقوا ضربًا عنيفًا من ذلك الطَوْد[١] المعدني القوي، كما لو أنهم وقعوا في فخ مذبحة عظيمة. يدل ذلك على أنه كان هناك العديد من الهجمات من داخله، حتى وُضِعَتْ دائرة كهربائية حول الهرم، ثم أُضِيئَتْ من التيارات الأرضية. كما أُغْلِقَت الأبواب على مدى نصف ميل أدنى الهرم، مما خلقَ – في النهاية – شعورًا بالسلام.

---

[١] الطَوْد: هو الجبل الأكبر شاهق الارتفاع.

ومِنْ ثَمَّ وعلى ما يبدو، عندما امتدتْ تلك الليلة الأبدية، ترعرع على إثرها قوة الذعر والخوف؛ بل وازدادتْ قوة تلك الكائنات الممسوخة والوحوش أيضًا. علاوةً على أنها استهوتْ أسماك القرش الجهنمية وجلبتها إليها من خلال تلك الهضبة الضخمة من الجنس البشري، والتي تواجه نهايتها القريبة للغاية من الأبدية، والتي أُرْجِئَتْ في ذاكرة البشر وحواسهم.

وهكذا؛ وُلِدَتْ هذه العمالقة من أب بشري بهيمي وحشي وأم من الكائنات الممسوخة. كثيرٌ من تلك المخلوقات كان لديها بعض من التشابه الخارجي للآدميين، بل ويشاركونهم في الفَهم والإدراك والدهاء أيضًا، بحيث أن بعض هؤلاء الكائنات البهيمية كانوا يمتلكون الآلات وأنفاقًا من أجل تأمين أنفسهم بالدفء والهواء كما لو أنهم آدميون في أتم الصحة والعافية، إلَّا أنهم كانوا يعانون من كثيرٍ من المتاعب. ربما كان ذلك بسبب كونهم ذئابًا بالمقارنة بالأطفال البريئة. هل هذا الأمر بدا واضحًا تمامًا؟

❖❖❖

والآن أواصل حديثي عن أرض الظلام.

كان حارس الجنوبِ كائنًا ممسوخًا، لكنه كان مختلفًا عن الأربعة، الذين قد تحدثتُ عنهم سابقًا، وهم:

حارس الشمال الغربي، وحارس الجنوب الشرقي – وقد تحدثتُ عنهما آنفًا – وكذلك حارس الجنوب الغربي وحارس الشمال الشرقي.

وبالتالي؛ ظلَّ هؤلاء الأربعة يحرسون في الظلام الدامس على الهرم الأكبر، فلم يهتزْ لهم جِفن واحد، ولم يصدرْ منهم صوت ولا همس أيضًا.

وهكذا، بعد فترة من سماع صوت حزين، والذي وصل إلينا عن طريق الكثبان الرمادية التي كانت تقع في الجنوب. وفي منتصف الطريق بين الحصن وحارس الجنوب، مررتُ على أحد الطرق المُوصلة إلى جهة الجنوب الغربي من الهرم. ثم نظرتُ من فتحة ضيقة – من أسفل ذلك المكان – إلى الوادي الفسيح الذي كان على عمق أربعة أميال، وكان فيه حُفرة الدخان الأحمر.

كانت فُوَّهة هذه الحُفرة على بُعد ميل كامل، وامتلأ الوادي الفسيح بالدخان الناتج من هذه الحُفرة. كان ذلك الدخان على هيئة دائرة متوهجة وسط سُحُب رعدية غائمة. ورغم ذلك، فلم يرتفع الدخان فوق الوادي قط. قد كانت الرؤية واضحة جدًّا على الجانب الآخر من تلك البلدة. وهناك، على طول الحافة، كان كل برج من الأبراج على ارتفاع ميل كامل، وكان السَّمْتُ العام هو الهدوء يعلوهم وميض.

أما في الاتجاه الغربي، فرأيتُ المكانَ الذي يُقتَل فيه ذلك الكائن الصامت الأخرس، وقد سُمِّيَ بهذا الاسم لأنه ربما قد خرج بعض الآدميين على الطريق حيث كان يسير ذلك الكائن الصامت الأخرس، ثم تم تدميرهم على الفور، منذ عشرة آلاف سنة مضتْ. وقال واحدٌ من الذين فروا هاربين: إنه سُمِّيَ بذلك الاسم (الكائن

الصامت الأخرس) لأنه مات بسرعة جدًّا، وكان ذلك سببه أن الدم في قلبه قد تَخَثَّرَ، فتسبب في إصابته بالجلطة. إن هذا الأمر، لا يمكنني شرحه أو توضيحه، بل دُوِّنَ هكذا في السجلات القديمة.

❁❁❁

وهكذا، فقد أوضحتُ شيئًا من أسرار أرض الظلام وخباياها، وأن تلك المخلوقات والظروف التي أحاطتْ بنا – وما زالتْ – تنتظر يوم الهلاك العظيم، إذ ينبغي أن يتوقف التيار الأرضي للكهرباء، فيتركنا فريسةً بلا عون لنا ولا مساعدة لأولئك الحرَّاس وذلك الذعر الذي أحاط بنا من كل جانب.

وهناك، وقفتُ فنظرتُ إلى أعلى – كما هو الحال بمَن وُلِدَ ليستكشفَ أمورًا لم يكن يعلمها – ثم ازددتُ في معرفة ماهية الأمور شيئًا فشيئًا. أما الآن؛ أنظرُ إلى أعلى فأرى هذا الطَّوْد المعدني الشاهق الذي أُغْمِدَ في ليلةٍ دهماء بلا نهاية.

أووه! فاتني شيء أن أذكره بالتفصيل أَلَاَ وهو:

كان هناك حول قاعدة الهرم الأكبر – في كل مكان – دائرة كبيرة من الضوء. انبثقتْ تلك الدائرة من التيار الكهربائي الأرضي، والتي اشتعلتْ داخل أنبوبة شفافة، أو أخذتْ ذلك الشكل الخارجي على هيئة أنبوبة شفافة. تلك الدائرة الضوئية الكبيرة التي كانت تحيط بالهرم من كل جانب، وكانتْ مشتعلة باستمرار، عَمِلَتْ على الحدِّ من قدرة المخلوقات الممسوخة على العبور من خلالها إلى الهرم

الأكبر. فأطلقنا على هذه الدائرة اسم: السد الهوائي، وهو مثل جدار الأمان، لكنه غير مرئي. إن ذلك السد الهوائي كان ينتج ذبذبات لها تأثير خفيف على عقول تلك المخلوقات الممسوخة، وكذلك على المخلوقات البشرية الممزوجة بصفات البهيمية والوحشية، مما جعله سدًّا منيعًا في مواجهتهم. وعليه فإن قوى الشر لم يكن في مقدورها أن تُلْحِقَ الأذى بهم داخل الهرم.

كل ذلك، إلَّا أنَّه كانت هناك بعض المخاطر من جانب تلك المخلوقات الوحشية، لكن لم يكن لديها الدهاء في استغلال تلك المخاطر وإلحاق الأذى بأي شخص داخل ذلك الحصن الأكبر. وفرضًا لو أنَّ وحشيًّا اقتحم بالفعل ذلك الحصن، فلم يكن هناك أية مخاوف على أي شخص بداخله؛ لأنه قادر على مواجهة تلك المخاطر دون خوف.

وهكذا، وبتلك الطريقة، تمت حماية هؤلاء الملايين من البشر من الهلاك باستخدام الدائرة الكهربائية الأرضية.

وبهذا قد أكون أوضحتُ سرًّا آخرَ من أسرار أرض الظلام، حيث أنصتُ إلى مجيء أحدهم عبر الظلام.

كيف عرفتُ ذلك؟!

سأشرعُ في الحال حكاية ما سمعت.

❁❁❁

الفصل الثالث

النداء الهادئ

بدأتْ أسفاري عندما بلغتُ سن السابعة عشر من عمري، والتي استمرتْ لمدة ثلاث سنوات ومائتين وخمسة وعشرين يومًا، حتى ذلك الحين.

لقد كانت رحلة جميلة حقًّا، ففيها التقيتُ بعديدٍ من الأشخاص، لكني لم أتمكن من رؤيتهم ثانيةً؛ لأن الحياة ليس فيها متسعٌ من الوقت للالتقاء مرة أخرى، وعلى كل شخص أن يؤدي مهامه حِيال حماية الحصن ورفاهيته. ورغم ذلك مما دَوَّنْتُه، إلَّا أننا سافرنا كثيرًا. ورغم أسفارنا الكثيرة، إلَّا أننا لم نلتقِ بكثيرٍ من الناس؛ لأن عدد السنين كانت قليلة بما لا يتناسب مع الملايين من البشر!

وكما قلتُ سابقًا[١] إنه في كل مكانٍ ذهبتُ إليه كانت نفس القصة نفسها حول مكان الملجأ الآخر. وفي مكتبات تلك المدن، كان لديَّ وقت كافٍ للبحث. ومما علمته أن هناك عددًا كبيرًا من السجلات حول وجود هذا الملجأ الآخر، حيث أن بعضًا من العلماء – منذ زمنٍ بعيدٍ – أكدوا أن مثل هذا المكان كان حقيقيًّا، وغير مشكوك في وجوده. وعلى النقيض من ذلك؛ كان يرى البعض الآخر من العلماء أن تلك السجلات – التي تؤكد وجود ذلك المكان – هي للقراءة وحسب؛ لأنهم في شكٍّ من أمره.

لم يغامرني شك، ولم تأخذني ريبة، في حقيقة وجود هذا الملجأ منذ أن سمعتُ بشأنه من السيد المونستروواكان الذي احتلَّ

---

[١] أي في الفصل الأول.

مع معاونيه برجَ الحراسةِ في قمة الهرم الأكبر. وهنا دعني أقول إنه كان راشدًا ناضجًا، وأنا لا زلتُ فتًى يافعًا، إلَّا أنه قد جمعتني به حميمية وصداقة قوية. وبالتالي؛ عندما بلغتُ الحادية والعشرين من عمري، فتح لي موقِعًا بداخل برج الحراسة لأتولى أمره. كان ذلك من حُسن حظي، لأن تعيين شخصٍ في ذلك المكان كانت أمنية للجميع وقتئذ.

واسمحوا لي أن أقول أيضًا - خشيةً أن يُظَنَّ بي بسبب صداقتي الحميمية جدًّا بذلك الوحش المخيف المونسترواكان – إن هناك مبررًا أو سببًا وجيهًا لاختياره لي صديقًا مُفَضَّلًا له، حيث سمح لي بالاستماع إلى شيءٍ لم يكن لديَّ علم به، وهو ما يُطلق عليه جلسة الاستماع الليلية، رغم أن هذا كان مجرد اسم يحيط به كثير من الأوهام والخيالات.

❁❁❁

فمن خلال جلسة الاستماع الليلية، استطعتُ أن أسمع الذبذبات غير المرئية للأثير، وذلك دون أن أنصت إلى النداء الصادر من الآلات التسجيلية الخاصة بنا، فاستطعتُ أن أستحوذ على الرسائل التي كانت تجيء إلينا باستمرار من خلال ذلك الظلام الأبدي. لم أعد صغيرًا حتى أسمع ذلك الصوت الذي لم يفارق آذاني للأبد، إلَّا أنه كان صوتًا مميزًا؛ عذبًا ورقيقًا، لا زلتُ أتذكره جيدًا، حتى

بدا لي أن ميرداث الجميلة قد سكنتْ في روحي، وأنها دائمًا معي حقيقةً في كل أوقاتي وأحلامي.

ذات يوم، في وقت السَّحَر، تأملتُ، أثناء نومي، عشقي هذا الذي ما زال معي في كل وقت وحين. وقفتُ متعجبًا لذاكرتي التي ما زالتْ تتذكر الماضي بقوة! تذكرتُ صوت الحب والعشق الذي كان قد مضى عليه أمد بعيد. استطعتُ أن أتخيلَ هذا الشخص في الزمن الغابر. كم كنتُ أستمعُ إلى جمال همساتها التي لا زالتْ عالقة في ذهني وآذاني بوضوح حتى هذه اللحظة.

وعلى حين غِرَّةٍ؛ بينما كنتُ واقفًا هناك أخاطبُ أفكاري همسًا، اشتدَّ شعوري بالسعادة الغامرة، كما لو كنتُ مسحورًا، كانت همساتها مثيرة جدًّا حين قرعتْ آذاني. كانت همسات رقيقة للغاية.

وعلى مدى أربع سنوات طويلة – وعندما كنتُ شابًّا في السابعة عشر من عمري – كنتُ أستمعُ إلى جلسة الاستماع الليلية؛ والآن بعيدًا عن ظُلمة الليل في العالم، وكل تلك السنوات الأبدية لتلك الحياة المفقودة التي أعيشها الآن في عصرنا الحالي – طَرَقَ الهمسُ آذاني؛ لأجل ذلك أدركتُ مصدرَ الهمساتِ فورًا. ومع ذلك؛ لم أُجِبْ بأي اسم، ولكني قمتُ بتوجيه الماستر وورد[١] أثناء الليل

---

[١] الماستر وورد: بالإنجليزية the Master-Word، هو رمز أو شعار تخاطري (أي عبر التخاطر) استخدمه هودسون في روايته لتحديد البشر الحقيقيين. وعدم القدرة على تمييز هذا الرمز يشير إلى أن الشخص غير بشري (مصاصي الدماء والمستذئبين). وقد يحدث ذلك التخاطر شفهيًا.

مع عناصري الدماغية أو قل مع المقومات الدماغية، وذلك قدر استطاعتي. وعلاوة على ذلك؛ أدركتُ أن تلك التي نادتني بهدوء، سيكون لها القدرة على الاستماع إلى جلسة الاستماع الليلية دون آلات، في حالة إذا ما كانت هي بالفعل حبيبتي. أما إذا كانت واحدة من تلك النداءات الكاذبة التي أطلقتها قوى الشر أو الوحوش الماكرة، فلن يكون لها القدرة على التلفظ بكلمة الماستر وورد؛ لأن هذه القاعدة قد ثبتتْ بالفعل، فصارتْ مُسَلَّمَة بها.

أَمَا وقد كنتُ واقفًا، سرتْ في جسدي قشعريرة، لكنني أحاول أَلَّا أرتعد أو أُصابُ بالتوترِ! فإذ بروحٍ تطوف بجسدي الحقيقي، إلا أن صوتَ هذه الروح كان مثيرًا وجميلًا للغاية. وبعد ذلك، استدعيتُ عناصري الدماغية: ميرداث! ميرداث! ميرداث! وفي تلك اللحظة، دخل كبير المونسترواكانز، حيث وقفتُ في ذلك الجزء من برج الحراسة، فرأى وجهي، فوقف هادئًا جدًّا – لم يُقْدِمْ على إيذائي. وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه القدرة على استماع جلسة الاستماع الليلية، لكنه كان ذكيًّا وواعيًا لما يفعل.

أما أنا فقد أخبرته بشيء من قصتي وآرائي وذكرياتي، وكذلك أخبرته عن ذلك الاستيقاظ. إن هذا يحدث في هذا الوقت الحاضر فعليًّا، فكان ذلك المونسترواكانز – كبير تلك الكائنات – يستمع إليَّ وعلى وجهه علامات التعاطف معي، لكن كان قلبه منزعجًا وقلقًا؛ لأن في ذلك الزمن يستطيع الإنسان أن يُفْصِحَ عما بداخله بصدق. أما في زمننا الحالي، فمن الجنون والهِتْر أن يُفْصِحَ الإنسانُ عما بداخله كما في ذلك الزمن الغابر. فمن خلال صقل المعارف العقلية

والمنطقية وإكمال المراحل التعليمية، يستطيع الرجال فَهم أمورٍ ليست في مقدورهم الآن إدراكها.

طيلة ذلك الوقت الذي رويتُ فيه قصتي له، كنتُ أستمعُ بروحي، باستثناء ذلك الشعور بالإغماء والضحك المتواصل الذي أقحمني في حالة سُكْرٍ؛ فلم أسمع شيئًا البتة، ولا شيء أكثر من ذلك طوال اليوم.

۞۞۞

واسمحوا لي – هنا لضعف ذاكرتي – أن أُسجِّلَ ما قلتُه – ولا زلتُ أكرره – في النزاع الكلامي القائم بيني وبين المثقفين، حيث إنهم يطعنون في صحة تلك القصة القديمة لأيام النور ووجود الشمس. على الرغم من أن تلك القضية تم إيضاحها تمامًا – كما هي في الحقيقةِ – موجودة في أقدم سجلاتنا، لكنني أخبرتهم عديدًا من الحكايات التي بدتْ لهم وكأنها جِنيَّات[١] فُتِنوا بجمالهن، في حين أن عقولهم لم تقبل بتلك الحكايات أصلًا، واعتبروها نوعًا من الهزليات. أما على حقيقة الأمر، فإنهم تقبَّلوا تلك الحكايات كنوع من الترويح عن النفس لا على محمل الجد قط.

وبالنسبة للوحش المخيف الكبير المونستروكان كان يستمع إليَّ فيما كان ينبغي عليَّ أن أخبره به. أجل! مع أنني تحدثتُ عبر

---

[١] جمع جِنيَّة: كائن أسطوري في التراث الشعبي العربي والأوروبي.

الأبواق، وهكذا سيكون، بعد أن تحدثتُ طويلًا، ونسجتُ قصصي من أحلام ذاكرتي، سأعود مرة أخرى إلى الحاضر من ذلك المستقبل. انتبه معي! كانت جميع كائنات المونسترواكانز قد تركوا أدواتهم وأجهزتهم وملحوظاتهم وتسجيلاتهم، ثم اجتمعوا حولي. أما بالنسبة لكبيرهم، فكان غارقًا في الاهتمام بي لدرجة أنه لم ينتبه لما فعله الآخرون من جنسه.

وعندما انتبه الوحش الكبير المونسترواكان إلى معرفة ذلك الحاضر، وعَلِمَ أنهم تركوا كل شيء بلا مبالاة، وبَّخَهم وعنَّفَهم. لقد كانوا عطشى لمعرفة المزيد، وكانوا يطرحون أسئلة كثيرة حول ما أخبرتهم به.

وهكذا كان الأمر يمكن فَهمه. فمن بين ملايين البشر تم اختياري حتى أعرف وأفهم كل هذا الذي سوف يحدث مستقبلًا. أما الآن في الزمن الحاضر، وفي الطبقة الأدنى من الحقول الزراعية الواسعة تحت الأرض، وعلى عمق مائة ميل أسفل الحصن، وجدتُ أنَّ عامِلَين من عُمَّال حراثة الأرض قد عرفا شيئًا مما أعرفه أنا. فتجمعوا حولي مرة تلو الأخرى، بينما كنتُ أنا والوحش الكبير المونسترواكان قد طُرِحْنا أرضًا بسبب بعض المواد التي تفاعلتْ مع التيار الكهربائي الأرضي.

أما بالنسبة للحقول الزراعية الواسعة، فينبغي أن نسجِّلَ شيئًا عنها؛ لأنها كانت أضخم عمل تاريخي في هذا العالم، حتى إنَّ الحصن الأخير لا يساوي نقطة في سعة تلك الحقول.

إن هذه الحقول – كما ذكرتُ آنفًا – على عمق مائة ميل إلى الأسفل، بالإضافة إلى أنه على عمق مائة ميل في كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة الرئيسة[١]. كان هناك ثلاثمائة وستة حقول تقع مباشرةً أسفل الطابق الأدنى من ذلك الحصن الأكبر.

وهكذا يتبيَّن أن هذه الحقول الزراعية قد شكَّلتْ هرمًا عظيمًا في عمق الأرض، على بُعد مائة ميل من القاعدة إلى الحقل العلوي.

لم يستطع الوحوش – وغيرها من الكائنات الأخرى – أن تحفر في تلك الحديقة العظيمة من الخارج، وذلك لأن ذلك الهرم الأكبر وتلك الحقول كانا مُغطَّيان بالمعدن الرمادي من جميع الجوانب، وكان كل حقل منها قائمًا على أعمدةٍ قوية. لذا؛ كان الحصن بأكمله آمنًا غير مُهَدَّد.

وعبر التيار الكهربائي الأرضي، أُضِيئَتْ جميع أجزاء تلك الحقول. وباستخدام ذلك التيار أعطى الحياة للتُربة، مما جعلها تُنْبِتُ ثمرها، ووهبَ الحياةَ للنباتات والأشجار.

❁❁❁

[١] الرئيسة، بدون ياء النسب (الرئيسية). فالأصوب لُغويًّا أن يقال: دخلَ فلانٌ من الباب الرئيس.

رأيتُ كل ذلك، إلَّا أن الحديثَ يأبى أن ينسى حديث العاشقين في حدائق ذلك الزمان، إنه الحديث عن معشوقتي. نداءٌ خافتٌ، يبدو أنَّ شخصًا يهمس في آذاني، أو يطوف من حولي. لا، لا! إنه ضعيف للغاية، لم أتمكن من التعرُّف إليه أو مصدره. كان ذلك النداء كثيرًا ما أسمعه.

وكان ينص القانون، الذي كان ساريًا لدى شعب الهرم الأكبر، على أنه ينبغي ألَّا يتمتع أي ذكر بحرية المغامرة أو خوض أية تجربة فيها مخاطرة في أرض الظلام قبل سن الثانية والعشرين، وكذلك الإناث على السواء. ومع ذلك، إذا رَغِبَ الشاب في القيام بأية مغامرة، فينبغي أن يتلقَّى ثلاث محاضرات حول تلك المخاطر التي أدركناها – فيما بعد – تجنبًا لأية أعمال بشعة التي ارتُكِبَتْ في حق أولئك الذين غامروا قبل سَنّ هذا القانون.

ولكن، لكل هؤلاء – كما انتشر خطر أرض الظلام – تم تثبيت شريحة صغيرة تحت الجلد في المِعصَمِ الأيسرِ. تعمل تلك الشريحة على مساعدة الشباب – ذكورًا وإناثًا – مساعدة كاملة أثناء المغامرة حِيال اتخاذه القرار بذلك.

وكان السبب وراء تلك الشريحة أنَّه ربما يقع الشبابُ في المكائد وحِبال الخداع والمؤامرة. لذلك؛ حفاظًا على النفس، فإنه يجب أن يلوذ الجميعُ بتلك الشريحة؛ لأن الروح ستبقى آمنة في الحياة الدنيا، بل وبعد الممات أيضًا. وبذلك؛ يستطيع الإنسانُ أن يعرفَ غيضًا

مِن فيضِ المخاطر والعراقيل المروعة التي سيواجهها في أرض الظلام.

قد سجلتُ ذلك كله لأنني سأقوم بمغامرة ضخمة في تلك الأرض لاحقًا. وفي هذا الوقت، جاءني هاتف يناديني بصوتٍ منخفضٍ ضعيفٍ جدًّا، فأرسلتُ إشارة الماستر وورد أثناء ذلك الليل الأبدي. أما بالنسبة إلى عناصري الدماغية، فقلتُ من خلالها: ميرداث! ميرداث! وجَّهْتُ نداءي إلى الظلام الدامس. كأن أحدًا يجيبني، لكن كان الصوت منخفضًا جدًّا، كما لو أن الروح قد أصابها الضعف والاستكانة.

نودِيت ثانيةً، لكن هذه المرَّة كان النداء واضحًا، حيث نُودِيتُ باسمي - اسمي الأرضي لهذا اليوم، وليس اسمي في ذلك الزمن؛ أي اسمي الحقيقي أثناء حياتي على الكرة الأرضية-. وعلى الفور، أرسلتُ إشارة الماستر وورد إلى الليل، وكان الأثير في كامل نشاطه الحيوي. عَمَّ الصمتُ في المكان بأكمله. كان بإمكاني سماع دقات آتتني من بعيد في الفضاء الخالي في الحصن الأكبر أثناء الليل. كانت تلك الدقات تجيب بإجابة مؤكدة أن الماستر وورد قد أُرسِلَتْ بشكلٍ صحيح إلى الطرف الثاني البشري. حينئذٍ علمتُ أن السيدة ميرداث هي التي كانت تناديني.

وعلى الفور، قلتُ: "ميرداث"، مُسْتَخْدِمًا تلك الإشارة، وقد أتتني الإجابة منها بسرعة.

وقف السيد المونسترواكان بجانبي بهدوء، مثل أي شاب من هذه الكائنات المسترواكانز، ينتظر لتدوين أية ملحوظات ضرورية، وليُشرِف عليها بطريقة حازمة، لكن ليس بها أي عنف أو قسوة. وهكذا، تحدثتُ إلى تلك الفتاة التي كانت لديها معرفةً باسمي، واسمي أثناء حياتي على الكرة الأرضية، فأطلقتْ على نفسها اسم: ميرداث.

وجَّهتُ إليها أسئلةً كثيرةً، وتحدثتُ إليها بشوقٍ، إلَّا أن ما أصابني من هَمٍّ وحَزَنٍ أنها لم تكن هي ميرداث! لم يكن ذلك اسمها، بل كان اسمها "ناني". لم تكن ناني تعرف اسمي البتة. لكن كان في المكتبة ذلك المكان الذي كانتْ تقطنُ فيه، كانت هناك قصة أن شخصًا سُمِّيَ باسمي، وزعمَ أن باسم ذلك الحب، الذي أرسلتُه بقوةٍ في الليل عبر الماستر وورد، فكان اسم الفتاة ميرداث. فلما نادتْ ناني، عاد إليها صياح ونداء من ميرداث الجميلة.

يبدو أن ذاكرة الحب الخاصة بي قد تلاشت تمامًا، ووقفتُ مهمومًا محزونًا على ذلك الحب القديم. ومع ذلك، وحتى ذلك الحين، تعجبتُ من أن أي كتاب كان ينبغي أن يكون له حكاية تشبه حكايتي إلى حدٍّ كبيرٍ. مع الانتباه إلى أن كافة تاريخ حكايات الحب تُكتَبُ بقلمٍ واحدٍ.

❁❁❁

نعود مرة ثانيةً إلى صوت الفتاة الآتي إلينا عبر ظلام هذا العالم. سأعرض ما كان عليها أن تقوله. فقد ثبت ذلك من خلال السجلات القديمة التي كانت بحوزتنا، والتي تم التعامل معها لفترة طويلة بشيء من اللامبالاة وعدم الاهتمام لشأنها. تقول تلك السجلات: إن هناك حصنًا ثانيًا لم يستطع أحد اكتشافه. ذلك الحصن الثاني عبارة عن هرم ثلاثي الجوانب، وصغير إلى حد ما، بحيث لا يزيد ارتفاعه عن ميل واحد.

وعندما بُنِيَ هذا الحصن الثاني، كان موقعه على الشاطئ بعيدًا من البحر، وقد شيَّده أولئك الذين قد شُرِّدوا من البشر؛ قد أرهقهم ذلك التيه وكذلك ضاقَ خطرُ هجوم تلك الكائنات نصف البشرية بهم ذرعًا. شيدوه ليكون لهم حصنًا وملاذًا آمنًا لهم.

ومع ذلك، بمرور الوقت، تم ترويضه أيضًا بسبب وطأة الخوف من جحافل الوحوش التي تتزايد بسرعة فائقة، وكذلك القوات الموجودة بالخارج. ولكونه السيد الأكبر، فقد شيَّدَ ذلك الحصن الثاني بمساعدة أربعة ملايين من الذين خشوا على أنفسهم خطر الكائنات نصف البشرية.

وقد اختاروا ذلك المكان تحديدًا لأنهم اكتشفوا علامة تشير إلى وجود تيار أرضي للكهرباء في وادٍ فسيح يؤدي إلى الشاطئ.

وبينما شيد كثير منهم المخيم الكبير، كان آخرون يحرسونهم ويهتمون برعايتهم. ففي غضون عشر سنوات، شيدوه على أكمل

وجه، وبذلك قد استولوا على ذلك التيار الكهربائي. لم يكن ذلك التيار وفيرًا لكي يكتفوا به، كما كان يُعْتَقَدْ ذلك سابقًا.

ففي الزمن الحاضر، وبعد سنين عديدة من تشييد ذلك الهرم، ولاذوا به آمنين مطمئنين وصنعوا أدواتهم الخاصة لحماية ذلك الهرم الحصين، صار لهم اتصال يومي مع الهرم الأكبر على مدى عصور طويلة.

ثم بدأ التيار الأرضي في التقصير في أداء عمله، رغم أنهم اجتهدوا وكافحوا عبر آلاف السنين للوصول إلى ما وصلوا إليه، إلَّا أنهم لم يحصلوا على مورد من موارد الطاقة الجيدة. لذلك فقد انقطع التواصل بينهم وبين الحصن الأكبر، لأن التيار الأرضي كان في حاجةٍ إلى قوة لتشغيل الآلات والأجهزة. فلم تعد أجهزة التسجيل قادرة على قراءة رسائلنا.

وبعد ملايين السنين من الصمت، كان هؤلاء البشر المنعزلين عن الحصن الأكبر منهم مَن يتزوج، ومنهم مَن يُولَد، ومنهم مَن يموت. كان معدل النمو بطيئًا؛ لذلك ألقي بعضهم اللوم على افتقارهم إلى التيار الأرضي الذي ظلَّ يتضاءل عبر القرون.

ثم أتتْ ناني – ابنة السيد المونستروواكان – بشيء جديد، وهو أنها أظهرتْ للجميع أنها صارت تحس وتشعر مثل الآدميين تمامًا. وذلك لأنها لاحظتْ ذبذبات غير مألوفة لها تطوف في ظلام الليل، فأخبرتْ والدها بذلك. وفي الوقت الحاضر، ولأن حياتهم قد استقرت في أجسادهم من جديد، فقد امتلكوا قلبًا لاكتشاف

مشروعات الآلات والأجهزة القديمة؛ فالصدأ أصابها منذ زمن طويل، وصارتْ في طي النسيان.

وهكذا قد اخترعوا جهازًا جديدًا لإرسال الرسائل من الآن فصاعدًا، فلم يكن لديهم الذاكرة التي تستطيع فِعل ذلك في ذلك الوقت. وعلى الرغم من ذلك؛ فإن المقومات الدماغية الخاصة بهم ضَعُفَتْ خلال عصور عديدة من الزمن الغابر الذي كان فيه الافتقار إلى التيار الأرضي بمثابة المجاعة.

وعندما انتهوا تمامًا من تجهيز ذلك الجهاز، كانتْ ناني هي أول مَن كان له الحق في الاتصال عبر الظلام، وذلك لكي تستكشف ما إذا كانوا بالفعل – بعد مليون سنة من الصمت – قد اجتمعوا على الأرض، أم أنهم قد صاروا ضمن آلاف الفقراء من البشر.

لقد حدث هياج مؤلم على أهل الهرم الأصغر، حيث إن عزلتهم عن العالم كانتْ سببًا في انفعالهم واستيائهم الشديد. إن الأمر بالنسبة لهم، كما لو أننا في هذا الزمن نقول لهم: عليكم أن تلقوا بأيديكم إلى التهلكة!

وبسبب ذلك الاستياء الشديد من أهل الهرم الأصغر، اتصلت ناني بذلك الجهاز – بأسلوب غير واضح – في الظلام. وعلى حين غِرَّة؛ جاء كل شيء عنها ليلًا في موقفٍ مهيبٍ من الماستر وورد. فصاحتْ صياحًا كبيرًا أنها قد تلقتْ من جهاز الإرسال ما قد كانت تنظره، فبكى كثيرٌ من الناس، بينما التزم بعضهم الصمتَ، وتوسلَ

آخرون إليها لكي تتصل به مرة أخرى حتى يتسنَّى لهم الحديث مع الآخرين من جِنسهم في الهرم الأكبر.

تواصلتْ ناني مع الماستر وورد ليلًا، فجاءها الرد مباشرةً: ميرداث! ميرداث! ذلك الرد المباشر قد تعجبتْ منه، حتى إنها ظلَّتْ ساكتة للحظة من الزمن. ولمَّا أرادتْ أن تجيب عليها عبر ذلك الجهاز، فُوجِئَتْ بتعطلها، ولم تستطع أن تتحدثَ إلى مَن كان يتحدث إليها.

كانت هذه المِحنة لأهل الهرم الأصغر – كما كان يُعتَقَد – بسبب العمل المتواصل بين ذلك الجهاز الجديد والتيار الأرضي، لكنهم حاولوا إصلاح ما قد فسد منه، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك لفترة طويلة من الزمن. وفي ذلك الوقت، غالبًا ما سَمِعَتْ ناني نداءً من السيدة ميرداث، النداءَ مرتين متتاليتين من الماستر وورد ليلًا، لكنها للأسف الشديد لم تتمكن من الرد على ذلك النداء! وبعد أن اطلعتُ على الأمر بعد ذلك، أدركتُ أن ألمًا قد أَلَمَّ بها بسبب ذلك الصوت الذي يُدعى ميرداث! فربما كان الحب يبحث عن رفيقه.

وقد كانت الصدفة، حين استيقظتْ على ذِكرى كتاب قَرَأَتْه في السنوات الأولى، لكنها لم تفهمْ ما به من كلام؛ إذ أنه كتابٌ قديمٌ قد كُتِبَ بطريقة قديمة.

ذلك الكتاب كان يعرض قصة الحب بين رجلٍ وخادمة يُطلَقُ عليها ميرداث.

وهكذا، لأنها كانتْ على وعيٍ شاملٍ ومعرفةٍ بتلك العصور المعروفة بـ عصور الصمت. فقد قرأتْ ذلك الكتاب مرات عديدة، فازدادَ رونقُ القصةِ جمالًا بسببِ ما فيها من حب عميق.

❖❖❖

أما الآن، في الزمن الحاضر، بعد أن تم تصليح جهاز الإرسال، نادتْ ناني عبر ذلك الجهاز على اسم الرجل المكتوب في الكتاب القديم.

أخبرتني ناني أن الطعام لم يكن كافيًا بالنسبة لهم، وعلى الرغم من ذلك، لم يكن أهل الهرم الأصغر مدركين لذلك الأمر، وذلك قبل استعادة التيار الأرضي. كان السبب وراء ذلك أنهم قد فقدوا الأمل تمامًا في استعادة ذلك التيار الأرضي الذي هو حياة بالنسبة لهم. فقد كان ذلك له تأثير قوي عليهم حتى إنه أثَّرَ على حاسة التذوق لهم!

كما أننا أعلمناهم أن التُّربة الزراعية قد هلكتْ، ولم تعد صالحة؛ لأن محاصيلها الزراعية لم تكن كما كانت في السابق. لذلك؛ قد تستغرق الكرة الأرضية رَدَحًا[1] من الزمن لاستعادة عناصر الحياة. علاوةً على أننا أخبرنا أهل الهرم الأصغر أن هناك أساليبَ عديدة

---

[1] الرَّدَح: مدة طويلة من الزمن.

يمكنهم من خلالها أن يستعيدوا الحياة بسرعةٍ إلى التُّربة الزراعية، فكانوا متحمسين لذلك.

والآن، يجب أن تعلمَ أن الحكاية في الحصن الأكبر أخذتْ مَنحى إلى أسفل بسرعة، وقد نُشِرَتْ في السجلات، وعليها تعليقات.

كانت المكتبات مشحونةٌ بأولئك الذين يبحثون عن تلك السجلات القديمة، والتي ظلَّتْ رَدَحًا من الزمن منسية أو مُستَولى عليها، كما نقول اليوم:

إنهم كانوا على ريبٍ مما أخبرناهم به، فلم يأخذوا كلامنا على محمل الجد.

وكنتُ أتحدثُ إلى ناني كثيرًا، وباستمرار، ونحن في الحصن الأصغر أو الهرم الأصغر؛ فقد علَّمتُها كيف يمكن لها أن تُرسِلَ جميع ما يخطر ببالها عبر الظلام الدامس، وذلك بالتعاون مع مقوماتها الدماغية. كما أخبرتُها أن إساءة استخدام ذلك الجهاز قد يؤدي إلى استنزاف قوى العقل والجسد.

وعلى الرغم من كل ما سبق، إلَّا أنها كانت تُرسِلُ رسائلها دائمًا دون قوة أثناء استخدامها لجهاز الإرسال. إن هذا الأمر الذي أشرتُ إليه منذ قليل، وهو أنها كانت تُرسِلُ الرسائلَ من غير قوة صحية لازمة أثناء عملية الإرسال. لكن فيما عدا ذلك، كانتْ ناني حريصة أشد الحرص على استماع جلسة الاستماع الليلية، رغم كونها أقل مني قوةً واستيعابًا.

وبسبب حديثنا الكثير إلى بعضنا البعض، انجذبَ كلُّ طرف إلى الآخر روحيًا وفكريًّا، وكنا دائمًا نشعر كأن أحدنا يعرف الآخر منذ أمد بعيد جدًّا.

وهكذا كان حال قلبي الذي انجذب إليها انجذابًا عجيبًا!

❁❁❁

الفصل الرابع

إسكات الصوت

كان اللقاء بين أرواحنا عبر الظلام الأزلي.

والآن، وبينما كنتُ أفكر مليًّا في هذا الأمر بجميع جوارحي وكياني، كنتُ أفكر في كيفية الوصول إلى ناني، إلَّا أن شيئًا مريبًا قد حدث! وفي هذا السياق لا بُدَّ وأن يكون الأمر كالآتي:

في الساعة الخامسة مساءً، أثناء نوم أهل الهرم الأكبر، كنتُ مع السيد المونسترواكان في برج الحراسة آخذًا وضعي المناسب. وإذ فجأةً سمعتُ الأثير من حولي، كأن صوت ناني بداخلي يُحدثني. لذا أرسلتُ إشارة الماستر وورد عبر الظلام. أما الآن، استقبلتُ جوابها الذي كان يطرق مسامعي ليلًا. وعلى الفور، ناديتُ ناني عبر عناصري الدماغية حتى يتسنَّى لي معرفة الشيء الذي أزعجها أثناء نومها.

استقبلتُ صوتها، كالعادة، كان ضعيفًا جدًّا لم أستطع سماعه بوضوح. كما لا تزال شعوب الحصن الأصغر في ورطة ساحقة مميتة أثناء اجتماعي بهم؛ لأن التيار الأرضي قد فشل فشلًا ذريعًا في أداء مهمته لتوفير الطاقة اللازمة لحياتهم. إنها ورطة! فتلك الشعوب نادتْ ناني لتستيقظ فتسمع هل هي سَمِعَتْ ذلك النداء عبر الجهاز؟ في الحقيقة لم يصل إلينا أية نداءات البتة.

إن تلك الشعوب قد ازدادتْ بلواهم؛ لأنهم كانوا يخشون المجيء الجديد المتعلق بالتيار الأرضي، ذلك الذي لم يكن إلَّا وميضًا وانفجارًا قبل النهاية الكبرى (هلاك الكون).

تحدَّثتُ إلى ناني خلال ما تبقى من وقت النوم، كما هو الحال مع اثنين من العاشقين اللذين سيفترقان من الآن إلى الأبد.

بعد ذلك انتشرتْ الأخبار في أرجاء المدن، إلَّا أن تلك الشعوب ما زالتْ في حزنٍ حتى ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ.

وهكذا كان الأمر لمدة شهر فقط، أصبح صوت ناني ضعيفًا، لم أستطع أن أؤمنَ أنه أمرٌ حقيقي خلال جلسة الاستماع الليلية. فلم يذهبْ عني الحَزَن ولا العناء الروحي الذي يتصارع بداخلي. كان بيني وبينها فراق مؤكد، حتى لم أقوَ على تناول الطعام من كَثْرة أحزاني. أما من جانب السيد المونستروواكان، فقد كان يوبخني من أجل تصحيح ذلك الأمر القائم. وفرضًا لو أنّ شخصًا ما سيحاول مساعدتي، فأَنَّى يكون ذلك بعد أن علمتُ أن أجهزة التسجيل متوقفة تمامًا!

كان من الحكمة وقتئذٍ أن أتناول طعامي، حتى لا تكون حياتي في مهب الريح، وأستعيد بذلك كامل قوتي. لكن الأمرُ كان قد فاقَ قوتي؛ لأنني – في الوقت الحاضر – نما إلى علمي أن شعب الهرم الأصغر مُهَدَّد بتلك الكائنات البهيمية الوَحْشيّة التي تحاصرهم. وبكلماتٍ خافتة همستْ في أذني، علمتُ أن هناك قتالًا ضاريًا ضد قوى خارجية ألحقت الأذى بكثيرٍ من الشعب. اتجهوا بحالة هيستيرية إلى باب الهرم الأصغر، ففتحوه، وهربوا منه إلى الأراضي المحيطة به، والتي كان الظلام الدامس يحيط بها من كل مكان. إن أجسامَهم الفيزيائية قد سقطتْ على تلك الكائنات البهيمية الوَحْشيّة على تلك الأراضي الظلماء، أما عن أرواحهم، هل يعلم أحد ماذا حدث لها؟

❖❖❖

في الساعة السادسة مساءً في تلك الليلة نفسها، كان هناك تشويش قويّ في موجات الأثير التي تُحيط بالهرم الأكبر. فأيقظني السيد المونستروواكان حتى أتمكَّن من استخدام ما بحوزتي، كإنسان بشري، في جلسة الاستماع الليلية بعد أن أُرسِلَ إشارة الماستر وورد. كان ذلك؛ لأنهم اعتقدوا أن آلات الاستقبال تستقبلُ الرسائلَ في جوٍّ من الغموض والإثارة.

أووه! بينما كنتُ جالِسًا على السرير، جاءتني إشارة في ذلك الظلام الدامس من الماستر وورد حول الهرم. ففي الحال، كان هناك صراخ يحيطني، قائلًا: نحن قادمون! نحن قادمون!

شعرتُ بالغثيان للحظة، وارْتَعَدتُ من شدة فرحي بتلك الإشارة؛ لأنها جاءتني من أحد الطرق القريبة جدًّا من ذلك الهرم.

أرسلتُ إشارتي إلى الماستر وورد ليلًا، رغم أنني لم أستقبلْ منه أية إشارة لفترة وجيزة، فتحرك الأثير من حولي تحركًا بسيطًا، وكانت الذبذبة ضعيفة إلى حدٍّ ما. أدركتُ أنه صوت ناني؛ لأن صوتها كان بعيدًا كالعادة. عندئذٍ، طرحتُ سؤالًا في ظُلمة ذلك العالَم الميت: هل كانت في ذلك الحصن الأكبر آمنة مطمئنة حتى الآن؟

وفي الوقت الحالي، حدث تشويش حولي، وصوت ضعيف يتحدث إليَّ من مسافة لا نهائية. علمتُ أنه صوت ناني، وأنها تسكن في ذلك الهرم الأصغر، حيث إنها سمعتْ إشارتي عبر الماستر وورد. كانت الرسالة: نحن قادمون! نحن قادمون!

إن هذا الأمر أزعجها كثيرًا، مما تسبب في إيقاظها من نومها. لذلك لم تكن تعرف في أي شيء تفكر فيه عدا أننا كنا نخترع طريقةً للوصول إليهم.

وبعد التفكير العميق، زال عني ذلك الشك الذي كان يراودني حول سؤالي السابق: هل كانت في ذلك الحصن الأكبر آمنة مطمئنة حتى الآن؟ قائلًا لنفسي: يجب ألَّا أبني أملًا بمجرد شك تافه.

قلتُ للسيد المونسترواكان أشياءً كثيرةً، وأنا أغير ملابسي، قلتُ له: كيف كان يوجد نداء من الماستر وورد، لكن لم يكن النداء صادرًا من أي من ذلك الهرم الصغير. أما بالنسبة لي، لقد صدر النداء من الهرم الأكبر، كما أنه أُرْسِلَ من غير جهاز! وكذلك قلتُ له: ينبغي أن نذهب إلى برج الحراسة، ونبحث في أراضي الظلام باستخدام المِنظار.

وبالفعل، قمنا بذلك. أووه! في الوقت الحاضر، رأينا عددًا كبيرًا من الرجال يعبرون أعلى الدائرة الكهربائية التي تحيط بالهرم، لكنهم لم تكن وِجهتهم إلينا؛ بل اتجهوا مرتجلين إلى الخارج، حيث الظلام الدامس، والنيران الغريبة، والأسرار شديدة التعقيد على أرض الظلام. صوَّب كلٌّ واحد منا نظره إلى الآخر، وتيقنَّا أن بعضًا منهم غادر الهرم الأكبر وقت النوم.

أعقب ذلك أن السيد المونسترواكان أرسل إشارة الماستر وورد إلى كبير الحُرَّاس ليخبره أن أحد حُرَّاسه قد اعْتُدِيَ عليه، وأن الناس غادروا الهرم الأكبر وقت النوم.

كان ذلك ضد القانون العام المعمول به عند ذلك الشعب. والحقيقة أنه لم يخرج أحد إلى أرض الظلام. وفي الوقت المناسب، عندما كان جميع الحراس منتبهين لمهامهم، كانت مسألة فتح باب الهرم الأكبر أمرًا معلومًا لكافة الناس؛ أي أنه لو أراد فرد منهم المغادرة، سيكون ذلك بعِلم الحراس لا عن غفلة عنهم.

وأزيد من الشعر بيتًا، أنه إذا أراد فرد من الناس مغادرة الهرم الأكبر، عليه أن يتجاوز الاستجواب والفحص، ويكون على استعدادٍ لذلك. هكذا كان نص القانون، وهو قانون صارم بالتأكيد، حتى إن هناك بعضًا من الأوتاد المعدنية على الجانب الداخلي من البوابة الكبرى. تُمزِّقُ هذه الأوتاد جلدَ كل مَن يتمرد على القوانين الحاكمة، فوُضِعَتْ مخبَّأة حتى لا يتلاشاها الهارب والمتمرد. وعلى ذِكر تلك الأوتاد المعدنية، كما ذكرتُ آنفًا، أننا كنا نقطن قريبين جدًّا من ذلك المكان، وأن الذاكرة لم تنس ذلك قط.

أما الآن، عندما سمع كبير الحراس أن ما قاله كبير المونسترواكانز كذبًا، هرول مع بعضٍ من أفراد الحراسة المركزية من قُبَّة الحراسة متجهين إلى البوابة الكبرى، فوجد جميع رجال الحراسة – بما فيهم الخفير المختص بحراسة البوابة – مكتوفي الأيدي والأرجل وأفواههم مُكَمَّمَة حتى لا يصرخ أحد منهم.

أطلق سراحهم جميعًا، وحينئذٍ نما إلى عِلمه أن ما يقرب من خمسمائة شاب ضخم مفتولي العضلات باغتوهم وقيدوهم، ثم

هربوا إلى أرض الظلام خارج الهرم عبر فوهة موجودة أعلى البوابة الكبرى للهرم.

كان المسئول عن الحراس غاضبًا، وتساءل: لماذا لم يستخدمْ أحدٌ الأجهزةَ الموجودة بغرفة الحراس؟ لكن، يبدو أن أحدهم حاول استخدام تلك الأجهزة لمنع عملية الهرب، لكنه وجد أن الأجهزة غير قادرة على إتمام عملية التسجيل الكائنة بقُبَّةِ الحراسة المركزية؛ لأن تلاعبًا ما قد تم بتلك الأجهزة، فلم تقم بمهمتها.

وفي الوقت الحالي، انتشر ذلك الخبر في كافة أرجاء مدن الهرم الأكبر، فظل الناس يستعجبون: كيف فكَّر خمسمائة شاب في المغامرة بحياتهم للخروج إلى يأس أرض الظلام؟! ما هذا الهِتْر[1]؟! استيقظ شعب الهرم كله، وجاء أهل الجنوب إلى الشمال؛ لأن البوابة الكبرى تقع في الجانب الشمالي الغربي من الهرم.

في تلك الأيام الثلاثة، لاحظنا أن بعضًا منهم يراقبون الحراس أثناء وقت نوم الشباب، ففهمنا أن هناك مَن يترأسهم ويدير هذا الأمر برمَّته. كان كلٌّ واحد منا يحمل سلاحه على أهبة الاستعداد، مما جعلنا نشعر بالأمل.

❖❖❖

---

[1] الهِتْر: هو السَّقَطُ من القولِ. أي (الاستهتار). انظر (مقاييس اللغة) - باب (الهاء والتاء وما يثلثهما).

وبهذه الطريقة، يكون قد لاحظ بعضُ العمالقةِ هؤلاء الهاربين، فانطلقوا بسرعة لشن هجوم عليهم لتدميرهم. لكن حدث بين الشباب ترتيب آخر حتى لا يقعوا في فخ العمالقة، فقاموا بعمل طابور طويل تفصل بين كل شخص وآخر مسافة؛ وذلك خوفًا من بأس أسلحتهم. وعلى الفور، توجَّه العمالقةُ إليهم. كان العمالقةُ في منظرهم العام كالسلطعون. كنتُ أشاهدهم من خلال مِنظار الحراسة الكبير، وذلك عندما كان الأعداء يلقون مشاعلهم المتوهجة حتى تُحْدِثَ انفجارًا ضخمًا عليهم على الجانب الآخر لأرض الظلام.

كان قتالًا ضاريًا بين الشباب والعمالقة، حيث اقتحم الشبابُ الأماكن القريبة من العمالقة. ورغم أن كثيرًا منهم قد تناثرتْ أشلاؤه، إلَّا أنهم قد هاجموهم من جميع الجوانب. أما نحن – شعب الهرم الأكبر – فكنا نرى بريق أسلحتهم من بأس القتال وشدته. لم نكن نسمع صيحاتهم لأن المسافة بيننا وبينهم كانت كبيرة. ورغم أننا كنا في أمان في الهرم الأكبر، لكننا كنا نرى قرون تلك العمالقة وأشلاء البشر تتناثر عبر مِنظار الحراسة. إن هؤلاء العمالقة في حجمها كانت تشبه الحيوانات الوحشية، لكنها على هيئة إنسان أو جزء منه. وينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن آباء هؤلاء الشباب وأمهاتهم قد شاهدوا هذا القتال الشرس عبر الكُوَّة[١]، وكذلك أقاربهم.

---

[١] الفتحة التي كانت موجودة في الهرم.

كان مشهدًا كئيبًا شديدًا على أنفسهم وعلى قلوبهم، ولم تتحمله الطبيعة البشرية، أو قل كادت رؤوسهم تشتعل شيبًا.

وفي الوقت المناسب، وضعَتْ الحربُ أوزارها، لأنه لم يبقَ من العمالقة شيء يُذكر. كما أننا لم نتمكن من الرؤية جيدًا.

بالنسبة لنا – ونحن بداخل الهرم الأكبر – رأينا القادة يعيدون ترتيب الشباب للاصطفاف. ومن خلال استخدامي للمِنظار، استطعتُ أن أقومَ بإحصاء تقريبي لهم، فوجدتهم حوالي ثلاثمائة ما زالوا على قيد الحياة.

بعد ذلك القتال الطاحن، أمضوا وقتًا في تطبيب جروحهم، فانفصل بعضهم عن الآخر، ومن هؤلاء أحصيتُهم فوجدهم خمسين فردًا. أما الآخرون فقد واصلوا مسيرتهم نحو الطريق؛ حيث ذلك الشخص الصامت، فأجبرهم قائدهم على الرجوع إلى الهرم. وبعد قليل، وجدهم يتجهون إلينا وهم في حالة من الضجر، وكانوا يتعثرون كثيرًا عمدًا في الطريق إلينا؛ لأن آلام القتال وجروحه ومعاناته قد بلغتْ منهم مبلغًا عظيمًا.

وبالنسبة للآخرين (ربما كانوا مائتين وخمسين فردًا) سلكوا طريقهم إلى أرض الظلام جهلًا بمعالمه، وهذا الأمر أحزننا قليلًا. ورغم ذلك، كان فخرًا لنا أن هؤلاء الشباب ما زالوا في ريعان شبابهم سُذَّج. كانوا بالأمس أطفالًا غير مكلفين، أما اليوم فقد أبلوا بلاءً حسنًا في مواجهة العمالقة.

وطوال هذا الوقت، أتى إلينا الجرحى على فترات، وكان الذي عُولِجَ يذهب إلى الآخرين من الجرحى ليساعدهم على الإتيان بهم إلى الهرم الأكبر. كان الأمر مرهِقًا وشاقًّا؛ حيث كنا نقوم بإحصاء الجرحى والمصابين، ومَن خرجَ ومَن جاء.

وعقب ذلك، سمعتُ أن هناك أمرًا جديدًا تم تداوله داخل الحصن، وهو أن عشرة آلاف رجلًا اجتمعوا في حجرة الاستعداد للطوارئ. وبهذا، عرفنا أن هؤلاء الشباب الذين تعثروا في طريقهم إلى الهرم الأكبر واتجهوا إلى أرض الظلام، ثم قدمنا إليهم المساعدات اللازمة لإعادتهم مرة أخرى.

وخلال وقت النوم، مضوا قُدُمًا نحو الاستعداد الروحي والجسدي. وفي الصباح من اليوم التالي يخلدون إلى النوم، بينما مائة ألف قد استعدوا استعداداً كاملًا بأسلحتهم. وفي هذا الزمكان[١] اقترب مائتان وخمسون شابًا، الذين سلكوا الطريق، حيث اقترب منهم ذلك الشخص الصامت، بعد أن ذهب إليهم على حذر شديد وببطء.

وكان الجرحى منهم – حتى الآن – قد وصلوا إلى ما يقرب من خمسة عشر ميلًا من الهرم الأكبر، وانتشر بين أهل الهرم أن عشرة

---

[١] الزمكان/ الزمان المكاني: هو دمج لمفهومي الزمان والمكان، هو الفضاء بأبعاده الأربعة. الأبعاد الثلاثة المكانية التي نعرفها: الطول، والعرض، والارتفاع، مضاف إليها الزمن كبُعد رابع.

آلاف من الرجال على أهبة الاستعداد. فنزلتُ إلى أسفل البرج، فرأيتُهم يتدفقون بالآلاف، لا أحد يُكلمهم ولا أحد يقترب منهم.

وفي الحال، أُصْدِرَ الأمر إلى كافة أرجاء ذلك الحصن الأكبر، كما هو مقرر في القانون، بفتح باب الهرم الأكبر، وأن يُرسَلَ بقائدٍ من كل مدينة من المدن الداخلية لتشكيل الحراسة الكاملة. فكان كل واحد منهم يرتدي درعًا ويحمل الديسكوس[١]. كان عددهم ألفين، واكتفوا بذلك العدد؛ لأن هناك مَن يعمل في الحراسة من قبل.

ثم خُفِّضَتْ المصابيح والأضواء التي بداخل الهرم الأكبر حتى لا يُلفِت الانتباه أثناء فتح الباب لِمَنْ هو بالخارج في أرض الظلام. ولكن، لا يهم إذا ما كانت قوى الشر التي بالخارج كانت تعلم بذلك الأمر أم لا؛ بل الأهم أن الذين سيخرجون إلى أرض الظلام يجب عليهم المجازفة على أية حال. وعليهم أن يتذكروا دائمًا أنهم قد استعدوا لذلك الدفاع المقدس وفي المِعْصَمِ الأيسر لكل فرد منهم تلك الشريحة التي ستساعدهم على اتخاذ أي قرار أثناء مجازفتهم ومغامرتهم خارج الهرم الأكبر.

خرج هؤلاء العشرة آلاف من البوابة الكبرى إلى أرض الظلام، ووقف الحراس لإعطائهم التحية في صمت تام، ولم يتكلم أي منهم

---

[١] الديسكوس Diskos: هو طبق صغير مُخصَّص للخبز المقدس (القربان) في العشاء الأخير للسيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

بكلمة واحدة. لكنهم أعطوهم التحية الواجبة مع رفع الديسكوس قليلًا حتى فقدوا وعيهم.

ومن ثم أُغلِقَتْ البوابة الكبرى، حيث كنا ننتظر ونراقب ما يحدث في صمت أيضًا. كنا قد وصلنا إلى حالة تنفس الصعداء. وعبر تلك الكُوَّة، كانت النساء تُشجِّع الرجال وترفع من روحهم المعنوية.

ثم صعدتُ ثانيةً من أسفل الهرم إلى برج المراقبة، وراقبتُ الأمر ماذا يحدث في أرض الظلام. رأيتُ أن العشرة آلاف فرد قد توقفوا عن السير، وأعادوا ترتيب أنفسهم من جديد. كان كل واحد منهم يُمسِك بيد الآخر حتى يتقدموا سويًّا – بلا خوف – إلى أرض الليل.

توجهتُ إلى مِنظار الحراسة، فنظرتُ من خلاله مُراقِبًا المائتين وخمسين فردًا الذين كانوا بعيدين عن مرمى المِنظار، حيث كان يسير الصامتون، فلم أستطع أن أتابعهم لفترة. قد بدا الطريق لي فارغًا، لا أحد فيه، وفيما بعد، استطعتُ أن أتابعهم ثانيةً؛ لأنهم انحرفوا عن الطريق – كما ظننتُ – بعد أن مرَّ أحدهم أمامي.

ثم مضتْ ثلاث ساعات، في ذلك الوقت، قمتُ بمراقبة الجميع من برج الحراسة. جاء العشرة آلاف رجل إليهم حتى صاروا على مقربة شديدة منهم. وبعد قليل، كان بعضهم يتجسس على الآخر. كنتُ في هذا الموقف سعيدًا ومبتهجًا؛ لأن جروحهم لَمَّا تلتئم، وكانوا يدركون مدى الفشل في هروبهم، رغم ذلك غامروا

بحياتهم. كنتُ سعيدًا أنهم فشلوا لأنهم قد تمردوا على القانون العام.

إنهم – الآن – مُحاطون بعشرة آلاف من الرجال، وقد حملوهم على المجانيق[١]. كانوا يتسارعون في الرجوع إلى الهرم الأكبر - ذلك الحصن الكبير-.

وفي الوقت نفسه، سمعتُ صوتًا جعلهم يُسارعون من خطواتهم للعودة إلى الهرم بأقصى سرعة. كان صوت نباح كلاب الصيد. أدركنا من خلال ذلك الصوت أن أمرهم قد افتُضِحَ، فقمتُ بتدوير المِنظار وجعلته تجاه أرض الظلام باتجاه وادي كلاب الصيد المتوحشة حتى أتمكن من مراقبة ما يحدث بالضبط. رأيتُهم يأتون باتجاه الهرم متثاقلين عَدْوًا بالخيول. قد كانوا على بُعدِ عشرة أميال تجاه الشرق.

شاهدتُ عبر ذلك المِنظار الكبير شيئًا يتحرك بعيدًا من اتجاه قاع النار الزرقاء، حدبة ضخمة للغاية، تبدو وكأنها مثل الضباب الأسود. كانت تأتي بسرعة مذهلة. فناديتُ السيد المونسترواكان حتى يتسنَّى له أن يشاهد معي، فأتى إليَّ مسرعًا. فلما شاهدَ ما كان يحدث، نادى واحدًا من المونسترواكانز لكي يكتب تقريرًا مفصَّلًا.

---

[١] مجانيق: جمع منجنيق.

فأجابه ذلك المونسترواكان أن: السائل الأثيري[1] اقترب من قراءة جهاز الإرسال. ذلك الأمر لم يكن ظاهرًا للرجل.

امتلأ قلبي كليةً بالرعب والخوف من هذا الوحش الذي عرفته، مما أكد لي أنه إحدى قوى الشر العظمى على تلك الأرض. ذلك الخوف والرعب كانا بإمكانهما أن يذهبا بي إلى الجحيم. أسرع كبير الوحوش المونسترواكان إلى جهاز النداء، وأصدر صوتًا عاليًا من خلاله قد وجهه إلى العشرة آلاف فرد حتى يحضروا. وعندما حضروا إليه، أومأ إليهم بإشارة مفادها أن يكونوا على حذرٍ مما سيحدث. عندئذ، أدركتُ أنهم يعرفون ما قيل لهم. أما أنا فرأيتُهم يقتلون الشباب سريعًا حتى لا تضعف معنوياتهم؛ لأنهم لم يكونوا مستعدين بالقدر الكافي لذلك. أما الشباب فكانوا مستعدين – كما قلتُ آنفًا – للموت في أية لحظة؛ لأنهم قد حازوا الشريحة التي وُضِعَتْ في المِعصم الأيسر لكل واحد منهم.

تقدموا إلى الهرم الأكبر بسرعة هائلة. وقبل أن يصلوا إلى بر الأمان، كانوا قد واجهوا كلاب الصيد التي كانت قريبة منهم جدًّا. ومع ذلك، لم يكف العشرة آلاف رجل عن المهاجمة بالديسكوس، وقبل أن يخرجوا منتصرين عليهم، كانوا قد قتلوا ألفًا وسبعمائة كلب من كلاب الصيد.

---

[1] السائل الأثيري: كان القدماء يعتقدون أنه يفيض من النجوم ويؤثر في أفعال الناس وأقدارهم.

ثم عادتْ تلك المجموعة مُنْهَكَةُ القوى إلى معسكرهم بالحصن الأكبر، وحملوا موتاهم لدفنهم. أما أهل الهرم الأكبر فقد استقبلوهم استقبالًا مشرفًا، فيه من الحزن ما فيه؛ فإن مدن ذلك الهرم قد أعلنت الحداد العام على موتاهم. لم يمر هذا الحزن على أهل الهرم منذ مائة ألف سنة.

والآن، كانت في حديقة الصمت، نهاية هؤلاء السبعة عشر مائة بطل. كانت تلك الحديقة مكانًا فخمًا تبعد مائة ميل من كل اتجاه، وشُيِّدَتْ على هيئة قُبَّة ضخمة.

❁❁❁

وفي وسط ذلك البلد الصامت، كان هناك تل عظيم أعلاه قُبَّة واسعة شاسعة. كانت تلك القبة مليئة بالأنوار يمكن رؤيته من كل مكان. وكان تحت تلك القبة (فتحة ضيقة) يشع من خلالها هالة من التيار الأرضي الذي ينطلق منه الحياة والنور والأمان. وكان يوجد طريق ضيق في نهايته بوابة في الجهة الشمالية من القبة، أطلقوا عليه اسم (الطريق الأخير)، ولم تُعرف البوابة بهذا الاسم من قبل، بل كانت تُعرَف بـ (البوابة) وحسب.

وهنا – في البلد الصامت – دفنوا موتاهم في قبورهم. حضر التأبين ما يقرب من مائة مليون فرد من كافة مدن الهرم الأكبر، وليشهدوا ذلك التكريم الأخير لهم قبل أن يواروهم في التراب.

ومع صعود الموتى إلى الطريق الأخير، كان الصمت يعم كافة أرجاء الهرم. لم يلبث ذلك الصمت والهدوء وقتًا طويلًا؛ فسمعتُ صوتًا أتى إلينا من بعيدٍ جدًّا مثل الريح التي تعوي. كان الصوت بعيدًا للغاية، ثم اقترب من المكان الذي كنتُ واقفًا فيه. كان الحزن قد عصف بهم، فأدركتُ أن تلك الجموع الغفيرة من الناس بدأت في الغناء بهدوء. تعلو أصواتهم تدريجيًّا، ثم تنخفض كذلك. ودخل الموتى عبر البوابة، ثم إلى نور القبة وهدوئها. دخلوا ولم يعد بإمكانهم الخروج.

أما بالنسبة لي، فقد كنتُ أقوم بواجبي، أو ألقي نظرة خاطفة على ما يحدث من خلال المنظار الكبير. كنتُ أُحِسُّ أحيانًا بأن هناك شيئًا ما عبر الماستر وورد، لكنها ضعيفة وغريبة، إلَّا أنَّ الأجهزة لم تستطع أن تلتقطها أو تتعرف إليها. عندما كان يحدث ذلك، كنتُ أعودُ إلى ناني، التي كانت هي بالفعل ميرداث؛ حيث أرسلتُ إشارة الماستر وورد مع عناصري الدماغية لكي أتواصل معها.

كانت الحقيقة القاسية والمريرة هي أن ضعفي الوحيد كان بسبب قوة قوى الشر ووحوش أرض الظلام، فكنتُ أكبحُ جِماحَ تفكيري الكثير حتى لا يؤثر عليَّ.

ويعود الصمتُ مرةً أخرى، ولم يعد هناك أي صوت يتحدث بداخلي؛ فقد كان الأثير من حولي ضعيفًا بعيدًا.

❖❖❖

الفصل الخامس

إلى أرض الظلام

بعد كل هذا الدمار وهذه الإبادة للعشرة آلاف فرد، تأكَّدَ لدينا أن أرض الظلام هي أرض للموت والهلاك.

هنا، سأخبركم كيف كان الهدوء الغريب الذي عمَّ كافة أرجاء الأرض. كان له أزيز مروع، فأعطيتُ نفسي مُهلةً لكي أتمعن ما سمعته: كان عبارة عن ضحكٍ عالٍ كالرعد، أو نحيب كالذي كنتُ أسمعه في الظلام من الجهة الجنوبية الشرقية. كانت تلك الأصوات تُصدَر غالبًا طوال الليل.

وبالتالي، سيُعلَم – فيما بعد – أنه لا أحد لديه الآن إمكانية مساعدة أهل الهرم الأصغر.

وكما ذكرتُ سابقًا، أنه لا أحد يعلم أين هو مكان أهل ذلك الحصن الأصغر.

قد تحمَّلتُ آلامًا وعجائب مليئة بالألغاز والأسرار العديد من أجل القيام برحلة استكشافية سرية ليلًا، ولمحاولة مني لأستكشف الهرم الأصغر، وإنقاذ آلاف الفقراء.

علاوةً على ذلك؛ كنتُ في أشد لحظات سعادتي – رغم تلك الآلام والغموض التي واجهتها – حين أمددتُ يدي إلى ناني (ميرداث) قائلًا لها: ها أنا ذاك. كما كنتُ أحاولُ أن أؤكد لها أنني هو أنا حبيبها عبر إرسالي المستمر لإشارة الماستر وورد ليلًا، فتطمئن وتعلم أنه لا شيء مؤذٍ سينال منها.

وكثيرٌ ما أخبرتُها مُرشِدًا إياها أنه ينبغي ألَّا تنخدع في ذلك الحصن الأصغر التي تعيش فيه. وكنتُ دائمًا أنتظر منها إشارة الماستر وورد حتى يتسنَّى لي معرفة أنه لا أحد من صديقاتها خدعها بالعيش هناك سرًّا.

ومع ذلك؛ والأيام تمضي، كان قلبي يُصاب بالتعب والاضطراب، كما بدا لي أن الحياةَ ما هي إلَّا شيء لا أهمية له، ورغم ذلك كانت خسارتي من هذه الحياة كبيرة للغاية: كان قلبي هو صاحب المعاناة الكبرى.

وفيما يتعلق بالجانب العاطفي، حدث شيء ما دفعني إلى اتخاذ قرار معين. ذات ليلة؛ استيقظتُ من نومي مضطربًا ومنزعجًا للغاية. قد تراءى لي أن ناني تناديني باسمي القديم بصوت مكروب متضرعًا إيايَّ، مما دفعني إلى أن جلستُ على السرير، وأرسلتُ إشارة الماستر وورد، وانتظرتُ إشارةً أخرى من جانبها. وكالعادة؛ لم أتمكن من سماع الإشارة من جانبها؛ لأن الصوت كان ضعيفًا للغاية.

وفي النهاية كدتُ أن أُصاب بالجنون همًّا وكمدًا، وهو نفس الشعور الذي أصاب الخادمة التي كانت بجواري، مما دعاني إلى أن أقفَ على قدمي في الحال، وأرسل إشارة الماستر وورد مرات عديدة طوال الليل حتى لا أبقى أكثر من ذلك في ذلك الهرم الأشم.

بينما كانت هي – التي شغلت تفكيري وحدها – في أرض الظلام بين الوحوش والدمار وقوى الشر العالمية. كنتُ أبحثُ عنها بكل كياني عبر إرسال إشارة الماستر وورد، لكن دون جدوى تُذكَر. لم يأت من أرض الظلام سوى الصمت!

قمتُ بارتداء ملابسي، وصعدتُ إلى أعلى برج الحراسة، فتحدثتُ إلى السيد المونستروَاكان؛ لأن قلبي كاد يحترق. فذهبتُ إليه، وأخبرتُه بكافة تفاصيل أمري. كان غرضي هو التخلص من حالة اللانهاية التي أعيشها. فربما عند استعدادي للقيام بمغامرة في أرض الظلام أجد ناني، فأستريح من ذلك القلق الطويل اللانهائي.

وبعدما استمع المونسترواكان إلى حديثي، هاجمني بشدة حتى أعدل عن تفكيري هذا؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يقوم بمهمة كبيرة وثقيلة للغاية كهذه بمفرده.

في نهاية حديثنا، اقتنع كبير الوحوش المونسترواكان بكلامي، ولاحظ أنني كنتُ مستعدًا لذلك تمامًا، ولم أتأثر بحديثه إليَّ. لكنه نبهني إلى أنني الآن أصبحتُ رقيقَ البِنْية هزيلًا بسبب القلق الذي كان لا يفارقني أبدًا، وأرشدني إلى أنه يجب أن أتريثَ قليلًا حتى أستعيد قوتي الجسمانية حتى أقوى على تلك المهمة في أرض الظلام.

انتظرتُ إلى الغد، وذهبتُ إلى حجرة الاستعداد، وخضعتُ لكافة مستلزمات التجهيز والإعداد الكامل حتى أظفر بالنجاح في مهمتي، وأجتاز ذلك الخوف والرعب على أرض الظلام.

أمضيتُ ثلاثةَ أيامٍ بلياليهن في حجرة الاستعداد والتجهيز، وفي اليوم الرابع، أحضروا إليَّ الدرع الواقي. ووقف كبير معلمي فريق الاستعداد والتجهيز بعيدًا عني على وجهه الحزن، لكن لا يستطيع أن يؤثِّرَ عليَّ أو يتحدث إليَّ؛ لأنه لا أحد في إمكانه أن يضغط على أحدٍ أو يقنعه بعكس ما يريد.

والآن، أصبحتُ متهيئًا للقيام بالمغامرة في أرض الظلام. ارتديتُ الدرع الواقي رمادي اللون، وكان تحت الدرع بِزَّة[١] مصنوعة بشكل خاص؛ متشابكة حتى تُوحي بأنها مثل الدرع تمامًا. وكذلك كانت تلك البِزَّة من أجل حمايتي من البرد القارس خارج الهرم الأكبر، ووضعوا لي قدرًا كافيًا من الطعام والشراب يكفيني فترة المغامرة. كان ذلك قد خُصِّصَ لي، وكان الدرعُ مختومًا بختم الشرف؛ لأنني، فيما بعد، نما إلى عِلمي أن النساء تنجذب إلى ذلك الختم، وأنه محببٌ إلى قلوبهن.

وبعدما تم كل شيء وتجهيزه، حملتُ طبق الديسكوس، وانحنيتُ لكبير معلمي فرقة الإعداد والتجهيز تحيةً له، فتقدمتُ نحو الباب وفتحته. فأشار كبير معلمي الفرقة إلى الشعب حتى يصطف خلفي لتحيتي. كانوا قد احتشدوا بجانب حجرة الإعداد والتجهيز، وخرجتُ دون أن يلمسني أحد؛ لأن ذلك – حسب القانون العام للهرم الأكبر – يُعد خطأً جسيمًا.

خرجتُ من الباب، ففوجئِتُ بملايين الناس مُصطفَّة حول الهرم، بينما كنتُ متجهًا إلى أسفل الهرم الأكبر. وقفوا في صمت شديد؛ لا كلام ولا حديث بينهم، بل وقفوا وهم في كامل تأييدهم

---

[١] البِزَّة: البدلة العسكرية.

لي. لم ينادِني أحد، ولم يلمسني أحد حرصًا على سلامتي، وعدم الوقوع في مخالفة القانون العام.

اتجهتُ إلى البوابة الكبرى، فإذ بالسيد المونستروواكان مرتديًا درعه حاملًا طبق الديسكوس ليكرمني، فانحنيتُ له تحيةً وتقديرًا له – دون كلمة أو حديث – ثم اتجهتُ إلى البوابة للخروج.

أطفأوا الأنوار أثناء خروجي من البوابة، لكنهم لم يفتحوا لي البوابة الصغرى، بل أمروا بفتح البوابة الكبرى التي تسع جيشًا هائلًا للدخول والخروج منه تكريمًا لي. كان الصمت قد أطبق على كافة الأرجاء. وأثناء خروجي من البوابة، رفع ألفان من الحرس أطباق الديسكوس تحيةً لي، وخرجتُ متجهًا إلى أرض الظلام.

تقدمتُ إلى الأمام، مع مراعاة أنني لم ألتفتْ ورائي، حتى لا أتأثر بشيء، واستجمعتُ قوايَّ الداخلية وشجاعتي حتى أكون عونًا لتلك الخادمة (ميرداث)، أو أموت خلال تلك المغامرة في أرض الظلام. كنتُ شاكرًا لما فعله كبير الوحوش المونستروواكان لدعمي روحيًا ومعنويًّا. وطأتْ قدماي على أرض الظلام ورأسي كاد ينفجر من تلك الذكريات القديمة والأفكار الجديدة التي ملأته، وكانت نفسي تراودني كثيرًا عن تلك المخاوف والشكوك التي سأتعرض لها هناك.

كان سيري تجاه أرض الظلام سيرًا أقرب ما يكون إلى التخبط، فكنتُ أسير دون اتجاه معين تقريبًا. وبعد فترة وجيزة، أبطأتُ من

ذلك المسير ليلًا، وراح عقلي يفكر في أمرٍ ما. وسرعان ما توصلتُ إلى طريق آخر يجب أن أسلكه بدلًا عن ذلك الذي كنتُ أسير فيه؛ فربما كان ذلك الطريق عليه رقابة شديدة من الخارج، فلا ألقي بنفسي إلى التهلكة.

ثم اتجهتُ نحو الشمال، وقد اطمأن كلٌّ من عقلي وقلبي لذلك الاتجاه. قد كان البرد قارسًا في ذلك العالَم الميت المجهول، كدتُ أن أموت من شدة البرد.

الفصل السادس

أرض الظلام

كانت بداية المغامرة رائعة، وشاقة في الوقت نفسه. لم أبالِ فيما لا يهمني، وحددتُ لنفسي ما الذي ينبغي أن أفكر فيه.

مضتْ إحدى وعشرون ساعة من بداية المسير في أرض الظلام، فشعرتُ بالتعب الشديد، وبالإغماء كذلك، مما دفعني دفعًا إلى البحث عن مكانٍ آمنٍ للراحة. وعقب مدة وجيزة، استكشفتُ مكانًا هادئًا، فحفرتُ حفرةً، وأشعلتُ النارَ، ثم اقتربتُ منها حتى أستمد الدفء منها. كان ذلك المكان آمنًا ومناسبًا لآخذ قسطٍ من الراحة.

وعندما كنتُ على مقربة من المكان، رأيتُه مكانًا مُبهِجًا – كما كان يقال – لكنه وسط العتمة. كان به ثقب مليء بالنيران وألسنة اللهب المتوهجة. لم أبرح مكاني، لأنني كنتُ متيقظًا. لم يكن لدي الشجاعة الكافية لأتناول طعامي، مما دفعني إلى أن أنظر ورائي إلى الهرم الأكبر. لكن – في الحقيقة – أنه على الرغم من أنني وصلتُ إلى مكانٍ جيدٍ، حيث كنتُ على مقربة من المكان الذي أهدف إليه، أحسستُ أنني في قمة سعادتي؛ لأنها كانت قريبة مني جدًّا. كنتُ سعيدًا جدًّا رغم تلك الظروف التي واجهتني في سبيل ذلك، ورغم تلك الآلام والأوجاع التي نالت مني.

كنتُ أشعر بالارتياح القلبي لأنني على مقربة من بيتي. في تلك اللحظة، كنتُ أعلم أن الملايين من الناس تراقبني، وكنتُ سعيدًا بأن كبير الوحوش المونسترواكان كان يراقبني من خلال ذلك المِنظار الكبير من أعلى برج الحراسة بالهرم الأكبر. استغللتُ تلك المراقبة

من بعيد، وابتعدتُ عن طعامي قليلًا، ثم فتحتُ ورقة كانت بحوزتي، وابتلعتُ منها ثلاثة أقراص ومضغتُها. كانت تلك الأقراص علاجًا وطعامًا لي أيضًا، ثم تناولتُ قارورتي فشربتُ منها الماء.

كان معي حقيبة صغيرة يوجد بداخلها بعض الأشياء. من ضمنها بوصلة، أعطانيها كبير الوحوش المونستراواكان حتى تكون لي عون أثناء مغامرتي على أرض الظلام. وقد قال لي: إنك قد تضل الطريق وسط ذلك الظلام الدامس من غير تلك البوصلة.

ثم وضعتُ البوصلة في حقيبتي ثانيةً، وأرغمتُ نفسي على النوم بعد أن قطعتُ مسافةً لعدة أيام من خروجي من الهرم الأكبر. فألْحَفْتُ نفسي بعباءتي، واستلقيتُ على ظهري لأستريح بجوار الحفرة الصغيرة التي أشعلتُ فيها النار للتدفئة.

كان الأمر على ما يُرام وقتئذٍ، وكانت استراحتي بجوار حفرة النار مريحة وهادئة. كانت مريحة مثل ذلك الشعور الذي استيقظتُ عليه فجأةً؛ فإذ بصوتٍ قويٍّ يصدر من بيتي. وعلى الفور، خلعتُ عباءتي بهدوء، وأمسكتُ بمقبض طبق الديسكوس، ونظرتُ إلى الهرم حتى أتلقى رسالة منهم؛ لأنني أدركتُ تمامًا أن هناك شيئًا ما، وأن هناك رعبًا ينتظرني على أرض الظلام من تلك الكائنات الممسوخة البهيمية.

وبعد ذلك، كان هناك أرض مرتفعة شكلها أعجوبة، رأيتُ ألسنة من النيران خضراء اللون تنبثق منها. أدركتُ أنها رسالة لي تحذرني من وحشٍ مخيف كان يزحف نحوي عبر شجيرات يكسوها

الطحالب، حيث أن تلك الشجيرات الطحلبية قد بدأت في النمو والظهور خلف ألسنة النيران. كانت تلك الرسالة حادة، لتخبرني أنه ينبغي أن أسلك طريقًا على يساري، وأختبئ هناك. سلكتُ ذلك الطريق، فدخلتُ بين تلك الشجيرات الطحلبية وأنا أتعرَّقُ من الرعب والخوف، ثم أصابتني قشعريرة قوية من شدة البرد القارس.

أووه! بينما كنتُ قاعِدًا مختبئًا، شاهدتُ شيئًا ضخمًا رمادي اللون يتجه نحوي من بين تلك الشجيرات الطحلبية. فقفزتُ من مكاني إلى مكانٍ آخر بين تلك الشجيرات، وكنتُ حذرًا تمامًا لكل ما يحدثُ حولي. كنتُ أعلمُ أن كبير الوحوش المونستروواكان يراقب الأمر برمته عبر المِنظار الكبير أعلى الهرم الأكبر. وفجأةً، أحسستُ بحركة مريبة خلف تلك الشجيرات التي كنتُ أختبأ فيها، فخرجتْ يدٌ كبيرةٌ، مما جعل الشجيرات التي حولي تتحرك!

أدركتُ وقتئذٍ أنه ينبغي عليَّ مهاجمته وضربه، فقفزتُ عليه ضاربًا إياه بطبق الديسكوس، فسقط شيء ما بجانبه، حتى أطلَّتْ أرجله الرمادية الضخمة من بين الشجرات الطحلبية. أما رأسه فكانت مغطاة بين تلك الشجيرات. فوقفتُ بعيدًا عنه أثناء احتضاره، فأطلقتُ عليه النار، فمات فورًا. حينئذٍ تفوقتُ عليه وقتلته شر قِتلة.

ثم ابتعدتُ عنه سريعًا، ولجأتُ إلى الاختباء ثانيةً في تلك الشجيرات، وفي يدي طبق الديسكوس حاملًا إياه بعنايةٍ فائقةٍ. أحسستُ أنه صديقي؛ لأنه كان سببًا في قتل ذلك الوحش بضربة

واحدة. شعرتُ وقتئذٍ أن ذلك السلاح يعرفني جيدًا. بالتأكيد لن يفهم أحد ما أقول! في الأيام الخوالي، كانوا يحملون سيوفًا قويةً دائمًا، أما الديسكوس كان أكثر حدة وصلابة من السيف.

وبينما كنتُ أسير، شعرتُ بإغماء بسيط، لأنني لم أتناول طعامي عقب ذلك القتال الشرس الذي دار منذ قليل. كانت تلك حماقة مني، لم أنتبه لها، لذا أرجو أن يغفر المونسترواكان لي هذا الخطأ؛ لأنني وقتئذٍ اضطربتُ اضطرابًا عنيفًا. قعدتُ مرة ثانيةً بين تلك الشجيرات الطحلبية، وتناولتُ ثلاثة أقراص مثل التي تناولتُها من ذي قبل. ثم نظرتُ إلى أعلى أفكر وأفكر في أشياء غير محددة. ثم وضعتُ الديسكوس على ركبتي، واستلقيتُ على ظهري استعدادًا للنوم.

استغرقتْ عيني في النوم، وقد كان المونسترواكان قد أدار المِنظار تجاهي، وهو يدرك أنني وحيد الآن أرقد على نتوء صخري بين الشجيرات.

استغرقتُ في النوم، ثم استيقظتُ فجأةً في منتصف الليل. نظرتُ سريعًا حولي لأجد شيئًا قد أيقظني، لكن لم أجد شيئًا يُذكَر، فنظرتُ إلى قرص الساعة الذي كان بحوزتي، فاكتشفتُ أني قد نمتُ ست ساعات كاملة على نحو هادئ تمامًا لا إزعاج فيها.

❁❁❁

وتساءلتُ عما إذا كان المونسترواكان ينظر إليَّ باحتقار أو بازدراء؟! استدرتُ سريعًا واتجهتُ إلى أرض الظلام ثانيةً، ووجهتي إلى بيتي، لذا تقدمتُ في المسير بخطوات ثابتة، آخذًا حذري التام أكثر من ذي قبل. ثم توقفتُ عن المسير في الساعة السادسة مساءً من ذلك اليوم، فتناولتُ بعضًا من الطعام والشراب ليكون لي عون على استكمال الرحلة الطويلة.

استأنفتُ المسير لمدة ست ساعات أخرى، ولم يكن لدي الرغبة في النوم حتى يتمكَّن الحارس في الهرم الأكبر من رؤيتي عبر مِنظاره وأنا على أرض الظلام. ظللتُ أسير حتى صارت عدد الساعات اثنتي عشرة ساعة كاملة، فأكلتُ مرتين وكذلك شربتُ مرتين. وأخيرًا، وصلتُ إلى جزءٍ من تلك الأرض كان هادئًا تمامًا، وقد قلَّ عدد الكائنات الممسوخة.

وقفتُ مكاني، فنظرتُ إلى الهرم الأكبر من ورائي، فإذ بي قد ابتعدتُ عنه كثيرًا؛ قد سِرتُ لمدة ساعات طويلة مرهقة. ثم استدرتُ ثانيةً متجهًا إلى مُبتغاي. كنتُ أتوخى الحذر كثيرًا، وكنتُ أختبئ تارة، وأزحفُ تارة أخرى. كل هذا حتى لا يراني أحد من تلك الكائنات الممسوخة الوحشية التي كانت تُحيطني من كل جانب في أرض الظلام.

وكانت المفاجأة! رأيتُ كائنًا أصفر اللون يخرج من بين الرمال إلى أعلى، وكانت الرمال تتساقط من عليه، ثم قام بتجميع أذرع بشعة المنظر من تلك الرمال التي كانت تغطيه، فمدَّ اثنتين من

أذرعه البشعة نحوي. لكنني ضربتُه ثلاث مرات ضربًا مُبَرِّحًا بطبق الديسكوس، فسقطتْ ذراعاه الاثنتان على الرمال. لم تكن النهاية كما كنتُ أتمنى، إلا أنه بدأ ينمو من جديد، ثم ركض نحوي. كان يشبه العنكبوت العملاق، فوثبَ إلى الوراء وثبةً رشيقة. كان يبدو أنه قد أُصيبَ باليأس من مهاجمتي. تلك الوثبة دفعتني لأهاجمه أنا، وكان لا بُدَّ لي أن أقتله فورًا. فأتيحتْ لي الفرصة، وتمكنتُ منه، ولم أهربْ ولم أخفْ، فركضتُ مباشرةً إلى أذرعه وأرجله المتعددة. فبدأتُ بمهاجمته من خلالها، إلا أن سيقانه كانت مُغطَّاة بشعيرات كثيفة تشبه الأشواك. تلك الشعيرات التي كانت أمرًا مزعجًا أثناء مهاجمته، إلا أن الدرع أنقذني وسهَّلَ عليَّ قتله فيما بعد.

فعلتُ ذلك بسرعة عجيبة، حتى إنني كنتُ أتحرك بين ساقيه بسهولة لأنني بالنسبة له كنتُ صغير الحجم. وكان السُّمُّ يقطر من شعيرات ساقيه، فكنتُ أحاولُ ألا تلمسني حتى لا أتسمم. حاول أن ينهض مرة أخرى ذلك الكائن الوحشي الأصفر، وأطلق أذرعه المتعددة لتنال مني، إلا أنني في هذه اللحظة قمتُ بضربه ثانيةً بالديسكوس وطعنته به، فاستدار ذلك الطبق، وأصدر صوتًا كزئير الأسد في المعركة، ثم أطلق لسانًا من لهيب من النار كما لو أنه من ألسنة جهنم على الأرض. كل ذلك، وذلك الكائن الوحشي الأصفر يتمزق جسده إلى أشلاء صغيرة، وصرخ صراخًا شديدًا مما يرى من أحشائه وأمعائه تتطاير؛ وهكذا كانت قوة ذلك السلاح الذي أثبت كفاءة عالية الدقة في القتال.

استعاد قوته ثانيةً، فألقى عليَّ قاذوراته، وأمسكتني المخالب الموجودة على رجليه حتى التوى درعي وأوشك على التكسير من قوة القبضة، مما أدى بي إلى غيبوبة كادت أن تُهلِكَني، فإذ بي أضربه بالديسكوس بيدي اليسرى الضعيفة؛ لأن يدي اليُمنى كانت على غير ما يُرام. أووه! لقد نجوتُ من قبضته بأعجوبة. ضربني ضربةً أطاحتْ بي بعيدًا حتى كدتُ أن أسقط في حفرة نار عميقة، لكني سقطتُ على حافتها، ثم عدتُ إلى الخلف قليلًا بعيدًا عن حافة تلك الحفرة.

ثم استدرتُ نحوه، فكان قد نفض عن نفسه الرمال التي كانت عليه، فظننتُه أنه مات، لكنه فقَدَ قوته لقتالي. أما أنا فكنتُ مُلقى على الأرض ضعيفًا، لم أعد قادرًا على مواجهته. ورغم أنه فقدَ قوته، إلا أنه استعاد عافيته ثانيةً بعيدًا عني بقليل، مما جعلني أتفحص جسدي وأنظر ما فيه من جروح وآلام. ثم لم أجد أي نوع من الجروح في جسدي، وإنما مجرد كدمة، وكذلك وجدتُ في ساقي الأيمن مخلبًا حادًّا وشعر حوله. لكن الدرع أنقذني من ضرره المُحَقق، ثم ركلته ركلةً برجلي اليسرى، وعلى إثرها سقط في حفرة النار.

وفي ذلك اليوم، مررتُ بسبع من تلك الحفر النارية كبيرة الحجم، واثنتان منها صغيرتان. فكنتُ دائمًا أذهب إليها بحذر لأستمد منهن الدفء في الليل القارس. وبالقرب من الحفرة السادسة، وجدتُ كائنًا ظننتُه رجلًا ضخمًا، أو هكذا يشبهه، جالسًا بجوار النار، وركبتاه مرتفعتان إلى ذقنه، وأنفه طويلة ومنحنية

للأسفل، ذا عينين نجلاوين. كان يشع ضوءًا من حفرة النار، ويتحرك، ويراقب المكان بهذه الطريقة. فلم يكن رجلًا كما ظننتُ في الوهلة الأولى، بل كان كائنًا ممسوخًا ضمن الكائنات المتوحشة على أرض الظلام. ذلك الأمر دفعني إلى أن أترك المكان بهدوء وحذر شديدَين. وكنتُ أنظرُ خلفي كثيرًا حتى تأكدتُ أني الآن في أمان من ذلك الكائن الممسوخ. كان ذلك المكان عرينًا له ومخبأه.

استأنفتُ رحلتي لمدة يومين آخرين. ربما ابتعدتُ مسافة ميلين كبيرين بين تلك الشجيرات الطحلبية، وكنتُ أسرِعُ في المسير. وفي الساعة السادسة مساءً من كل يوم، نمتُ في مكان آمن من أجل النوم والراحة. ففي اليوم الأول، تمكنتُ من ذلك تحت شجيرة كثيفة، وفي اليوم الثاني، نمتُ على حافة لصخرة عالية وسط الشجيرات، ما جعلني لم أشعر ببرودة الطقس. وخلال هذه المدة، لم أتمكن من رؤية الهرم الأكبر.

وعندما دقت الساعة السادسة مساءً من اليوم الثالث، رأيتُ مشهدًا عجيبًا وجديدًا للهرم الأكبر بعيدًا في الظلام من ناحية اليمين. توقفتُ هناك في مكانٍ خالٍ من الشجيرات الطحلبية، فأمسكتُ بالديسكوس ولوحتُ به إلى الهرم الأكبر تحيةً مني له. إنه بيتي ووطني الحبيب. كنتُ في غاية السرور والسعادة لرؤيته ثانيةً.

وبعد قليل؛ لاحظتُ أن هناك اضطرابًا في الأثير في العالم كله من حولي، حيث بدا لي أن أحدًا كان يراقبني عبر المِنظار الكبير، وينتظر قدومي من خلف ألسنة النار الزرقاء. وكما أن اضطرابًا في

الأثير من حولي قد حدث فجأة، وإذ به يسكت فجأة أيضًا، ثم مضيت في طريقي مرة أخرى. وفي تمام الساعة السادسة مساءً، جئتُ إلى مكانٍ ما سمعتُ فيه خريرًا من الماء، فاتجهتُ إلى جهة اليمين لأرى مصدره. كان عبارة عن ينبوعٍ ساخنٍ من صخرة، صعدت إلى ذلك المكان. فجلستُ بجوار ذلك المجرى المائي الدافئ، وإذ سمعتُ صوتًا من بعيدٍ، كان صوت كلب من كلاب الصيد الضخمة ينبح في الظلام.

وبعدما مرَّ قليلٌ من الوقتِ، أنصتُ بعناية لذلك الصوت. أووه! قد بدا لي على مسافة ميل – أو أقل – إنه كلبٌ ضخمٌ، فأدركتُ – وقتئذٍ – أنه هو الكائن الوحشي الذي كان يتعقبني، فوقع في قلبي بعض الرعب والقلق. لم تكن قدمي قادرة على حَملي من التعب والقلق معًا، ولكن قمتُ بتجهيز الديسكوس للدفاع عن نفسي. إن أسوأ ما في الأمر أنك تعرف أن كائنًا بهيميًّا وحشيًّا هو الذي يطاردك في كل مكان! أمر مخيف ومرعب. كاد القلق يفتك بي من كَثرة التفكير في ذلك الوحشي؛ كنتُ أفكر في إيجاد أفضل طريقة أضمن بها نجاتي منه ومن أي خطر يقابلني في أرض الظلام. ففكرتُ في استخدام المجرى المائي الدافئ، فقفزتُ سريعًا فيه، وركضتُ إليه حتى وصلتُ إلى الجزء الأوسط منه.

سمعتُ صوت الكلب ينبح بعيدًا عن مجرى الماء، لكني- على الفور- غوصتُ في الماء حتى وصل الماء إلى رقبتي؛ قد كان العمق كبيرًا، ثم انقلبتُ على بطني، فاندفع الماءُ فوق كتفي. أبقيتُ رأسي على سطح الماء حتى أتنفس. كان الموقف صعبًا ومرعبًا، حيث

كنتُ أراقبُ الكلبَ من بعيد وأنا في وسط الماء هل ابتعد عن المكان تمامًا أم لا. وبعد قليل، رأيتُه قادمًا تجاهي، لكنه كان يبدو وحشيًّا ضخمًا، يشبه الحصان. ذهب عن المكان وابتعد، ثم لم أره بعدها لأني قد أغمدتُ رأسي في الماء بالكلية حتى وصلتْ إلى صخرة كانت أسفل القاع، وكادتْ روحي تُزْهَق من قلة التنفس تحت الماء.

خرجتُ من الماء بعدما تأكدتُ تمامًا أنه قد اختفى، ولم أعد أسمع صوت نباحه. خرجتُ منحني الظهر متسللًا بين الشجيرات الطحلبية، متجهًا إلى جهة الغرب الشمالي، حتى صرتُ على مقربة من البيت. كان البيت ضخمًا مليئًا بالأضواء الهادئة، ولم يكن به أي صوت على الإطلاق، ومع ذلك كنتُ أفكرُ في رؤية بعض الأشخاص المنعزلة بداخله، وإنما لم أر أحدًا قط. فنظرتُ إلى أعلى البيت، فكان الصمت يعم البيت بطريقة مخيفة مما جعلني أتسكَّعُ على جوانب الطريق المؤدي إلى البيت الذي أطبقَ عليه الهدوء المخيف.

وفي غضون خمس ساعات خرجتُ من البيت، وكان قلبي -وقتئذ- أكثر راحة وطمأنينة، لكني لم أتناول طعامي ولم أنم كذلك لفترة طويلة، وهذان الأمران اللذان كنتُ في حاجة إليهما بشدة. كان أولًا ينبغي أن أبتعد عن البيت، وأعود إلى حفرة النار حتى أستمد الدفء منها؛ الطقس كان قارس البرودة.

وفي الوقت الحالي، خرجتُ من البيت، واستطلعتُ الحفرةَ من الجهة الغربية، حيث بدا لي على بُعد ميل تقريبًا ألسنة من النار

تدل على وجود حفرة هناك. فبدأتُ أعيد ترتيب أشيائي لأذهب إليها. لكن بدا لي أن كائنًا ممسوخًا وحشيًّا قريبًا جدًّا من تلك الحفرة -كما هو الحال في أغلب الأوقات- مما أهلني نفسيًّا لخوض معركة شرسة ضده؛ لأني في أشد الحاجة إلى التدفئة اللازمة لجسدي، أو سأموت لا محالة.

سريعًا ما انطلقتُ إلى تلك الحفرة، وبقدر المستطاع حاولتُ أن أجعل مكاني آمنًا بعيدًا عن أية تهديدات تزعجني. وجدتُ صخرةً موجودة أعلى تكتل كبير من الشجيرات الطحلبية، فذهبتُ إليها، ومن حُسن حظي أني وجدتُ صَدَعًا في أسفلها، فدخلتُ من خلاله وبدأتُ في ترتيب أغراضي استعدادًا للنوم. نمتُ سريعًا من شدة التعب والإرهاق، ولم يكن لي سوى لحظة واحدة حتى أفكر في ناني.

استيقظتُ مرتاحًا مطمئنًا لا يعكر صفوي شيء، ثم تسللتُ إلى فوهة الحفرة، ونظرتُ إلى خارجها، فوجدتُ طريقًا ملتويًا هادئًا لا يوجد فيه ما يهدد أمني وسلامتي. استغرقتُ في النوم عشر ساعات كاملة، ثم أسرعتُ إلى طعامي وشرابي لكي أتناولهما؛ كنتُ جائعًا لكن إرهاق أمس حالَ بيني وبينهما. سلكتُ ذلك الطريق الملتوي، بعد مدة سفر طالت إلى اثنتي عشرة ساعة، ثم رأيتُ أنني أتيتُ منحدرًا عظيمًا، حيث كان العالَم ينحدر نحو الجهة الشمالية. ثم فعلتُ مثل ما فعلتُ أمس. والآن؛ كان يتوجب عليَّ التوقف عن المسير، لأن شيئًا ما قد أربكني. قد أتى رجل من هذا الزمن إلى الجزء الذي انتهى العالَم فيه؛ سوف تعلم أن ذلك الطريق الملتوي كان يبدو أنه طريق يسير إلى الأبدية لا نهاية له. ستفهم – فيما بعد –

حيرتي التي كنتُ فيها بسبب أنه كان شعورًا غريبًا جدًّا تجاه شخص قد انتهى من ذلك العالَم!

ومن هناك – من أعلى ذلك المنحدر العظيم – نظرتُ إلى أسفل ذلك الظلام الأبدي، ومنه إلى الضوء الأخير. كنتُ في حالة من الرعب والهلع! أووه! أتتْ إليَّ دقات بعيدة وضعيفة من إشارة الماستر وورد. كان يبدو أن تلك الإشارة أتتني لتمنحني شجاعةً وقوةً حتى لا أُصاب بالرعب ولا بالهلع. ومن ثم؛ دفعتني تلك الإشارة إلى إرسال مثيلتها فتصل إلى ناني، وحتى تعلم أنني كافحتُ كثيرًا من أجل الوصول إليها. ورغم ذلك كله، أخذتُ الحيطة والاحتراس في الوقت المناسب. ففي الحقيقة أنه بعد إرسالي لإشارة الماستر وورد، هل ستتنبه قوى الشر في الأرض لخروجي؟! هل بذلك أكون قد أتيتُ بقوى الشر لتقتلني وأكون قد عجَّلتُ بهلاكي؟! لذلك كان من الحكمة أن أتصرف بعقلانية لا بعاطفة.

وبما أنني قد استمدتُ بعض الشجاعة والشعور بالقوة بعد إشارة الماستر وورد، انتظرتُ أن تأتي الرسائل تلو الأخرى، لكن ذلك لم يحدث، ثم عدتُ إلى حالتي الطبيعية. أدركتُ – وقتئذٍ – أنه يجب عليَّ أن أجد الخادمة، وهو الأمر الأهم، فنظرتُ إلى الهرم الأكبر متلهفًا بشوق ربما يشيروا إليَّ بإشارة أخرى أو تحية أو أي شيء من هذا القبيل، لكن دون جدوى. ثم استأنفتُ طريقي نحو أرض الظلام ثانيةً.

❖❖❖

اتجهتُ إلى أرض الظلام على حذر شديد، وستعرف أنني كنتُ في أشد القلق من تلك الليلة تحديدًا؛ كانت ثقيلة على نفسي وروحي. لم أر مثلها قط، حتى إنني أحسستُ أني أسير من غير هدف. كانت مغامرتي – في هذه الليلة – عشوائية، فلم أعد أستطيع النوم على تلك الأرض، كما لو أنني خرجتُ إلى فضاء لا نهاية له. كان لدي شعور عجيب وغريب بعدم الارتياح، لذا كنتُ أتوقفُ كثيرًا حتى يتسنَّى لي أن أستمع إلى أية إشارة من الماستر وورد، إلا أن ذلك لم يحدث. شيء ما قريب مني ويتتبعني، هكذا شعرتُ، ولم أستقبل أية إشارة كما قلتُ.

وهنا ينبغي أن أُلْفِتَ انتباهكم إلى أن شيئًا ما قد حدث في الساعة السابعة، بعد أن تناولتُ طعامي وشرابي، ثم سلكتُ طريقي، اختلَّ توازني فجأة أعلى الصخرة، ولولا الدرع الذي أنقذني لكنتُ من الهالكين. ثم أحسستُ بشيء غريب يسري بروحي جعلني لا أتمكن من الوقوف على قدمي؛ بل جثوتُ على ركبتيَّ، فزحفتُ على بطني!

زحفتُ على بطني طوال ذلك اليوم؛ كان طريقًا طويلًا وشاقًّا، ورغم ذلك قطعتُ أميالًا طويلةً على أرض الظلام. ثم توقفتُ عن الزحفِ بعد أن بدا لي أن ذلك المكان الذي توقفتُ فيه مكان آمن إلى حدٍّ ما، فألقيتُ الصخورَ بعيدًا عن المكان، حتى أتمكن من الاستراحة، وأتناول طعامي وشرابي كذلك. وبشق الأنفس، خلدتُ إلى النوم لمدة ست ساعات، وإذ بي فجأةً استيقظتُ لظني أنَّ شيئًا ما يقترب مني. أمسكتُ الديسكوس وكلي آذانٌ مصغيةٌ.

لكن – كالعادة – لم يكن هناك شيء أسمعه، ولم يكن لدي القدرة على معرفة كُنْه هذا الشبح الذي يطاردني!

كان ذلك اليوم مثل سابقه، إلا أني في ذلك اليوم – في تمام الساعة الثامنة مساءً تقريبًا – أوشكتُ على الوقوع في حفرة كبيرة، لكن لم أسقط. ومضيتُ في طريقي زاحفًا على بطني لأن ذلك أكثر أمانًا مِن أن يراني أحد. والآن، وبحلول هذا الوقت، كنتُ قد نزلتُ إلى ذلك المنحدر لمدة ستة أيام. يبدو أنه ينبغي عليَّ أن آتي إلى وسط ذلك العالَم؛ لأن النزول إليه من غير نهاية.

والآن، توقفتُ مؤقتًا، فنهضتُ ووقفتُ على قدميَّ حتى أنظر إلى ذلك الضوء الذي رأيتُه من بعيد. أووه! عندما نظرتُ إليه، سمعتُ صوتًا بعيدًا وضعيفًا في الظلام، حيث إن بعضَ الأشياءِ ظهرتْ تشبه الأنابيب الضخمة، فتوجستُ خِيفة منه مما دعاني أن آخذ الحيطة والحذر. فركضتُ ثانيةً مختبئًا بين صخور المنحدر، وأبقيتُ نفسي على ذلك الوضع حتى لا يراني أحد من تلك الكائنات البهيمية الممسوخة. وعلى مسافةٍ بعيدةٍ أسفل الوادي، شاهدتُ ألسنة لهب مشتعلة. وهكذا وصلتُ إلى قاع المنحدر الضخم، لم يكن ينحدر إلى أسفل، ورغم ذلك لم يكن المنحدر كبيرًا وواسعًا كما توقعتُ من قبل.

توقفتُ عن التجول باحثًا عن مكان آمن حتى أنام فيه، وسرعان ما وجدتُ ذلك المكان. كان كهفًا صغيرًا بين صخرتين عظيمتين. وفي الوقت الحالي، خلدتُ إلى النوم وكافة أمتعتي

وأسلحتي بجواري، وكان الديسكوس على صدري. وبعدما أخذتني سِنَة من النوم، راحَ عقلي يفكرُ في ناني كالعادة. ثم استيقظتُ، فتناولتُ طعامي وشرابي، ثم أتيت إلى مضيقٍ، في نهايته كان هناك ضوء أحمر متوهج. فكنتُ حريصًا على القدوم إلى ذلك المضيق حتى أستكشف حقيقة هذا الضوء المتوهج. ثم تقدمتُ – في الوقت الحالي – سريعًا جدًّا، فإذ بي أقتربُ من منحدر ثانٍ عظيم. وفي تمام الساعة الخامسة مساءً، اقتربتُ منه جدًّا، وهنا قد حذرتُ نفسي من ذلك المنحدر المخيف، فزحفتُ على بطني لبعض من الوقت بين الصخور المظلمة في ذلك المكان، حتى أتمكن من رؤية ذلك الضوء الأحمر المتوهج.

والآن، خرجتُ من الكهفِ لأنظر ما الذي خارجه، فرأيتُ بلدَ البحار الهائل، وبراكين شاسعة مشتعلة. كانت البراكين تشتعل بداخل البحار؛ فكان ذلك البلد مليئًا بألسنة اللهب المشتعلة. وهكذا سترونني واقفًا بين الصخور العالية وسط ألسنة اللهب المشتعلة. وكما يبدو أنني أنا الشخص الوحيد الناجي من كل هذا الخراب والدمار! كنتُ في حالةٍ من الذهول والصدمة والاضطراب. وعلى الفور، تأكدَ لي أن الأمر لم يكن كذلك، فإن ناني لم تخبرني بذلك كله، ولم تخبرني بأنهم كانوا على أرض الظلام المليئة بتلك البحار المشتعلة، وبكل المخاطر التي واجهتُها هنا. تأكَّدَ لي وقتئذٍ أنه ينبغي عليَّ أن أتجول بحثًا عن نهاية العالم.

❁❁❁

الفصل السابع

الهرم المظلم

خرجتُ من ذلك المضيق في غضون ساعتين، ووقفتُ على أرض ذلك البلد. ما زال الضيق والحيرة في صدري، رغم أنني كنتُ في قمة سعادتي لرؤيتي ما رأيتُ. وقبل ذلك، قد نزلتُ من ذلك المضيق، فوقفتُ في فوهته، فألقيتُ نظرةً على ذلك البلد. كانت البراكين والبحار تحيط بي من كل جانب.

أما الآن، تقدمتُ سريعًا نحو غابة على جهة اليسار – لم يكن لها اسم – وعلى جهة اليمين شواطئ بحار، كما أن أشجارًا نمتْ وارتفعتْ في الماء. كان أمرًا عجيبًا حقًّا حينما كنتُ أسير بين تلك الأشجار التي في الماء! أثناء السير صادفتُ سبعةً وثلاثين ينبوعًا مشتعلين بنيران عالية الحرارة لدرجة أني كنتُ أسمع أجيج النار من مسافة بعيدة. وعندما حانت الساعة السادسة مساءً، قعدتُ كعادتي لأستريح، ثم تناولتُ قرصين من أقراص الطعام السريعة، فالماء بعدها. ثم استعدتُ للنوم؛ كان اليوم شاقًّا ومتعبًا جدًّا، فاخترتُ مكانًا آمنًا بحيث لا يستطيع أي كائن وحشي مهاجمتي. كانت الجسد هو الذي يستريح، أما العينان فكانتا مفتوحتين لمراقبة المكان؛ أحسستُ أن شيئًا يسكن في تلك الغابة بالقرب مني. وكعادتي أيضًا جال في خاطري ناني؛ لأني كنتُ دائمًا أشعر أن روحها تحوم بالقرب مني.

أووه! ما هذا؟! استيقظتُ على أمر جاد وخطير. أدركتُ في تلك اللحظة أن روحي قد أمدتني بالمعرفة الكاملة وأيقظتني لأواجه

ذلك الأمر الجاد الخطير. فأول ما استيقظتُ، قبضتُ بقوة على الديسكوس ممسكًا إياه، فإذ بي أرى ستة من الرجال قد اتخذوا هيئة القرفصاء وضعًا لهم، ثم اصطفوا صفًّا واحدًا. كان اصطفافهم في الظلام قد أرعبني بشدة. أدركتُ أنهم يراقبونني؛ فقد كانت لهم أعين كأعين الكائنات الوحشية العملاقة! رغم خوفي منهم، إلا أني كنتُ واثقًا أنني سأتغلب عليهم جميعًا؛ لأن لدي درعا متينا وطبق الديسكوس.

وقفتُ مستعدًا لمواجهة هؤلاء الرجال وفي يدي الديسكوس، إلا أنني لم أرهم البتة. لم أعرف كيف اختفوا من أمامي، رغم أن عيني لم تفارقهم لحظة واحدة! كنتُ على وشك أن أصدق أنه لا أحد هناك أصلًا، وأن هذه خيالات. أووه! فعلى مقربة من انتهاء الساعة الثلاثين من رحلتي بعدئذٍ، لاحظتُ المياه قبيل نهاية طريقي، وعندما وصلتُ هناك، تأكَّدَ لي أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

ثم كان أمامي مصب لنهرٍ من الأنهار، حيث كانت جزيرة. اعتقدتُ أنها ملاذٌ آمنٌ للست رجال الذين رأيتهم ليلًا. كان لا بُدَّ لي أن أعبر هذا النهر، لكن لم أكن أعرف كيف يكون العبور! لم يكن لدي القدرة على السباحة، رغم ذلك سبحتُ وعبرتُ النهرَ، حيث الوحوش العملاقة كانت تحيطني من كل جانب رغم أني لم أرَ واحدًا منهم. ثم أتيتُ إلى ضفة النهر تقريبًا حتى أصل إلى مكان يضيق فيه

النهر، لكن فوجئتُ بنهرٍ ثانٍ بعدما اقتربتُ من الخروج على شاطئ النهر الأول. كان البحر على أحد جوانبي، والنهر الأول أمامي، والنهر الثاني قد أولجتُ فيه فعلًا. ما هذه الحيرة التي أنا بها؟! ما كل هذا التيه الذي أنا فيه؟! ما كل هذه المشكلات؟!

وبالصدفة البحتة، لا أعرف كيف وصلتُ إلى بر الأمان والخطر محدق بي من كل جانب! ثم صنعتُ مِجْدافَين وقاربًا صغيرًا من أشجار الجزيرة التي على الشاطئ، ثم نزلتُ ثانيةً إلى النهر حتى أستكمل إبحاري حتى نصف الساعة من الزمن. كان شبح الخوف يطاردني أثناء إبحاري، واطمأن قلبي فقط بعدما وصلتُ إلى جزيرة أخرى أبعد من الأولى. فكان من الحكمة أن أضع أمتعتي فيها، وأنام عليها. هو ذلك الذي فعلتُه بالضبط، وقبل ذلك أكلتُ وشربتُ، ثم خلدتُ إلى النوم. كانت الجزيرة آمنة تمامًا، ولم يلحق بي أي ضرر يُذكَر. كان نومي على تلك الجزيرة أشبه بالموت لمدة تسع ساعات كاملة؛ لأني كنتُ في أشد حالات الإرهاق والتعب.

استيقظتُ مرتاح البال، فتناولتُ الطعام والشراب في حالة من الهدوء؛ لأني اعتقدتُ وقتئذٍ أن الكائنات الوحشية قد ابتعدتْ عني، كما اعتقدتُ أني قد هربتُ منهم بعيدًا. وبحلول الساعة السادسة مساءً، كنتُ قريبًا من شاطئ آخر بعدما تركتُ الجزيرة التي كنتُ فيها. ما هذا الحُمق والهِتْر! أيمكن أن أصل إلى تلك المرحلة من الغباء؟! كان بإمكاني أن أتسلق أي شجرة كبيرة من أشجار الجزيرة

السابقة وأصنع سريرًا سهلًا أعلى الشجرة، وبهذه الطريقة لا يمكن لأي وحش من الوحوش أن تنال أو تقترب مني. أما الآن، تسلقت شجرةً من شجر الجزيرة الثانية، وصنعتُ سريرًا للنوم أعلاها، ثم وضعتُ الديسكوس على فخذي حتى لا يسقط، ويكون في الوقت نفسه قريبًا من يدي حتى أمسك به وقت اللزوم. لم أخلد إلى النوم سريعًا كالعادة، وإنما ظللتُ أفكر في تلك الفترة التي قضيتُها وسط كل هذه المخاطر. سمعتُ إشارة من الماستر وورد آتية من الخادمة الحبيبة؛ حيث تلقيتُ الإشارةَ بشكل مخيف آتية من منزلي وهو الهرم الأكبر. وذلك لأني قد أمضيتُ خمسة وعشرين يومًا من السفر، ولم أذهب إلى أي مكان يخيل لي أنها تقيم فيه الخادمة. كان نومي غير منتظم؛ لم أسترح في تلك الليلة. أما الآن؛ نمتُ نومًا عميقًا. ثم استيقظتُ على مفاجأة هذه المرة! انقلبَ غصنُ الشجرةِ الذي كنتُ نائمًا عليه؛ فقد كانت الضوضاء تملأ المكان بأسره، فلم يكن ذلك سببه أجيج النيران.

ثم أتاني سبعة رجال يهرولون بين أشجار الجزيرة، فأصابني الرعب الشديد، لكن أمسكتُ بالديسكوس استعدادًا للقتال. قفزوا جميعًا على أغصان الشجرة دون الغصن الذي كنتُ عليه. يبدو أنهم أتوا لمخلوق آخر مثلهم، وليس من أجلي. وفجأةً، انحنوا جميعًا في صمت شديد، ولم يتحركوا قط، بل كان الهدوء يعم الأغصان أسفل الغصن الذي كنتُ عليه. ثم رأيتُ رجلًا آخر منهم يأتي إلى الشجرة،

فتسلقها، ثم وقف على غصن أسفل السبعة رجال؛ لم يكن هناك أية إشارة أو علامة على أنهم أتوا لإنقاذ هذا الرجل أو الكائن الذي كان تحتي. كان من الواضح تمامًا أن بعضَ الكائنات الوحشية طاردتْ هذا الرجل. وفورًا شاهدتُ كيف كان الأمر. إن الرجلَ لم يستطع الركض سريعًا؛ قد كان ضخمًا وقبيحًا جدًّا. لديه سبعة أقدام من كل جانب، وهو أمر في غاية الغرابة، وكانت بطنه ثقيلة جدًّا على الأرض، فإذا ما سار على الأرض اهتزتْ اهتزازًا شديدًا. قد كان مُصابًا وبه جروح كبيرة في ظهره، ودماؤه كانت تسيل منه بشكل مقزز.

أتى ذلك الكائن حتى وصل إلى أسفل الشجرة التي كنتُ مختبأ أعلاها، وعندما وقفَ أسفلها، قفز السبعة رجال عليه قفزة سريعة فأمسكوا بقرون العمود الفقري الضخمة. ثم أخذ كل واحد منهم الحجارة التي كانت بحوزته وألقوها بوحشية على تلك الجروح الغائرة. زأر ذلك المخلوق وصرخ من شدة الألم، ثم هرب إلى داخل أشجار الجزيرة، فتوقفوا عن ضربه. وعندما ابتعد عنهم مسافة ليست بالكبيرة، حوَّل اتجاهه إلى جهة اليمين، لكن يبدو أن أربعة من الرجال كانوا بانتظاره هناك، فاجتمعوا عليه وقتلوه. في بداية هذا العالم، كان يوجد أشياء كثيرة مثل هذه، وفي نهايته كذلك. ففكرتُ قليلًا في كنه هذا العالم الذي أنا فيه: وحوش ضخمة تتصارع حتى الموت.

۞۞۞

بعد ذلك تأهبتُ للمضي قدمًا في رحلتي، وفكرتُ في استخدام البوصلة، وما هي إلا ثوانٍ معدودة وقد استخدمتُها فعلًا كما أخبرتني بذلك ناني. كانت البوصلة قد أفادتني أني ذهبتُ إلى مكانٍ خفي من ذلك العالم، حيث بَقِيَ الهرم الأصغر (الحصن الأصغر). لم أستطع أن أصف سعادتي وقتئذ، فلم أخش أي شيء غريب أو مريب يهددني وأنا في طريقي إلى بيتي. ثم إن كثيرًا من الأوقات امتنعتُ عن إرسال إشارة الماستر وورد إلى ناني؛ قد امتنعتُ عن ذلك الفِعل الأحمقلأنه كان يجلب قوى الشر لتهددني في الليل. كان ذلك الرعب والخوف في الليل هو السبب في الوصول إلى ناني ومساعدتها ومد يد العون لها، مما دفعهم أيضًا أن يتتبعوا خطواتي حتى يمنعوني من الوصول إليها.

ففي الساعة الثالثة عصرًا، جئتُ إلى مكانٍ بين الجبال: كان مضيقًا صاعدًا مظلمًا جدًّا دون أية إشارة إلى وجود ضوء هناك. في الحقيقة، لم أكن أرغبُ في الصعود عبر ذلك المضيق المظلم، فأنا الآن في مكانٍ أوسع بكثير والضوء في مكاني الحالي موجود، فلا داعي للصعود إليه. وفي الوقت الحالي، تجاوزتُ ذلك المضيق المظلم، وتوجَّبَ عليَّ أن أعرف إذا ما كان هناك طريق آخر للخروج من ذلك المكان أم لا. ولمدة ساعة من الزمن، كنتُ أسير على قدمي بين الجبال حتى وصلتُ إلى نهر أسود اللون، كان عرضه يقرب من الميل تقريبًا. كان ذلك النهر أسودَ من ندرة المياه فيه، وكَثرة الطين به. من

هنا وهناك، ومن كل مكان، خرج بخار عظيم وملوثات من ذلك الوحل الموجود بالنهر، حيث انبعثت منه حرارة كبيرة من أسفله.

ثم عدتُ إلى الطريق الذي كنتُ أسير من خلاله، فظننتُ أنه نهرٌ، وإنما هو بحر، ولم يكن هناك مكان للعبور؛ لأنه لم تكن هناك أشجار قريبة حتى يتسنَّى لي صُنع مِجدافَين كما فعلتُ سابقًا. فبسبب ذلك، عدتُ مرة أخرى إلى ذلك المضيق المظلم، ثم صعدتُ حتى أعلاه في الظلام. كنتُ أتعثرُ كثيرًا لظلامه الدامس لمدة ست ساعات. ثم غادرتُ البحار والأنهار التي كانت تحيطني من كل جانب، حتى عدتُ إلى حالة الرعب التي كنتُ أشعر بها على أرض الظلام. وطوال رحلتي عبر المضيق المظلم، كان المضيق يتجه إلى أعلى بشكل حاد جدًّا يصعُب على أي أحد صعوده إلا بشق الأنفس. رغم ذلك كله، صعدتُه سريعًا – قدر استطاعتي – وأنا في حالة من الحماسة والأمل؛ لأني كنتُ أشعرُ أنني قد اقتربتُ من الهرم الأصغر. وعندما اقتربت الساعة من السادسة مساءً، لاحظتُ أن طبيعة المضيق المظلم شديد الرطوبة ومرعب في آن واحد.

ظللتُ في ذلك الظلام المخيف سائرًا على قدمي مدة طويلة، حيث كانت ألسنة لهب حفر النار تزداد وتزداد على الجانبين. كان أجيج النار يتصاعد حتى أزعجني، وكانت الرائحة كريهة للغاية حتى أصابتني جزئيًّا بمرض الغثيان.

وكان إذا ما ظهر لي أن شيئًا ضخمًا يتحرك أمامي، نزلتُ بين الصخور أختبئ. فإذا ما ذهب من أمامي -وكانت رائحته كريهة للغاية-، قمتُ من مكاني وانطلقتُ في طريقي. وفي الوقت الحاضر، بينما كنتُ أنظرُ إلى هذا الطريق، رأيتُ أن هناك شيئًا قبيحًا مثل البزاق يصعد على الجانب الأسود من المضيق المظلم، كما لو كان واقفًا على نهاية المضيق أعلاه. أوشك العرق أن يغمرني من كَثرة الخوف من ظلمة المضيق، لكن بعد ذلك تحليتُ بالشجاعة وأحكمتُ سيطرتي على الكائن الوحشي من بعيد. ثم زحفتُ على بطني بين الصخور الرطبة لوقتٍ ليس بالقليل.

خرجتُ من ذلك الظلام وانتهت تلك الرائحة الكريهة بعد حوالي اثنتي عشرة ساعة. شعرتُ بالحر الشديد بعد البرد؛ ازدادت النيران واشتدت واشتعلت أكثر، حتى أصيب حلقي بألم شديد من كَثرة وجود مادة الكبريت في الهواء. تقدمتُ سريعًا مستغلًا ذلك الضوء حولي الناجم عن النيران الكثيفة، رغم حرارتها العالية. أما الآن، وجدتُ كهفًا صغيرًا يتجه إلى الداخل على جانب المضيق المظلم، فألقيتُ نظرة فاحصة فيه، فوجدتُه نظيفًا جميلًا جافًّا. في مدخل ذلك الكهف حفرة صغيرة مشتعلة بالنار، والتي ساعدتني في استكشاف الكهف من داخله، فلم أجد شيئًا ينبئ عن أذيتي قط، فدخلتُ الكهفَ وأعدتُ سريري حتى أنام. كان جسدي متسخًا بالوحل والطين؛ لأني قد زحفتُ على بطني كثيرًا، مما لم يجعلني

أستطيع أن أتناول طعامي وشرابي. خرجتُ من الكهف، فإذ ببئر صغيرة بالقرب من حفرة النار المشتعلة، فاتجهتُ إليها لأنظِّفَ نفسي، ثم جففتُ جسدي بقطعة قماش كانت معي.

عدتُ إلى فوهة الكهف، وطبق الديسكوس في يدي، فتناولتُ أربعة أقراص من الطعام المجفف؛ لأني قد أوشكتُ على الهلاك بسبب عدم تناول الطعام. ثم شربتُ الماءَ. والآن، في الوقت الحاضر، بدأتُ الاستعداد للنوم، فأتيتُ صخورًا من خارج الكهف، ووضعتُ بعضَها على مدخل الكهف حتى لا يدخل إليَّ بعض الكائنات الزاحفة الصغيرة فتؤذيني، ثم خلدتُ إلى النوم. نمتُ نومًا هادئًا عميقًا لمدة ثماني ساعات كاملة، ثم استيقظتُ وأنا في كامل قواي مستعدًا لاستكمال رحلتي على أرض الظلام. انطلقتُ في طريقي كالعادة، حتى لاحظتُ أن الجدران السوداء القاتمة التي على جوانب المضيق المظلم لم تعد موجودة فعلًا. ففوجئتُ بأني في نهايته حقًّا، مما أثار دهشتي وغمرني بالفرحة والسعادة. توقفتُ عن الصعود وأنا في نهاية المضيق، وإذ بي أرى بلد أرض الظلام العظيم!

كانت تلك الأرض غريبة وعجيبة حقًّا؛ إذ كان هناك ضوء كثير في جهة، وكان هناك ظلام قاتم في الجهة الأخرى. فأخرجتُ البوصلة، ووضعتُها على الأرض لكي أرى إلى أي اتجاه ستشير. وبالفعل، سارت الأمور كما أخبرتني ناني. كنتُ على يقين أنني أتقدمُ فعلًا إلى الحصن الخفي، لكن البوصلة لم تعطني الطريق المناسب،

وإنما يبدو أن الأمر أكثر يقينًا من ذي قبل؛ إذ أسير في اتجاه صحيح بنسبة عالية.

اتخذتُ اتجاه البوصلة طريقي، وكنتُ حذرًا في رحلتي؛ فقد علمتُ من الخادمة أن هناك قوى مخيفة في ذلك الاتجاه. وفي الوقت الحاضر، صعدتُ إلى فوهة المضيق المظلم، ثم ألقيتُ نظرةً ثانيةً فاحصةً لما على تلك المنطقة. كان على يسار المضيق سواد قاتم، وعلى الجانب الأيمن منه براكين منخفضة الاشتعال التي كانت على طول الجانب الأيمن، وكانت تشَّكل جدارًا للمضيق.

في الساعة العاشرة مساءً، رأيتُ بريقًا أحمر اللون أمامي، وأعلاه حفرة ضخمة، فأبطأتُ من سيري لمدة ساعتين كاملتين. وفي تلك الساعتين، رأيتُ كائنات بشعة المنظر وقبيحة تذهب عكس اتجاه ذلك البريق الأحمر، ثم دخلتُ إلى الأدغال. وبقيتُ فترةً في الأدغال أراقب تلك الكائنات القبيحة، فقد بدا لي أن هناك عمالقة تعيش على تلك المنطقة، كما هو الحال على أرض الظلام، ثم تسللتُ إلى أن خرجتُ من تلك المنطقة. كنتُ آخذًا حذري تمامًا حتى لا يُكتشف أمري، كما ينبغي أن أحافظ على نفسي حتى أتمكن من إنقاذ خادمتي. ذهبتُ وفي يدي الديسكوس، فتناولتُ بعض الأقراص من الطعام المجفف حتى أحافظ على صحتي وقوتي. والآن، في الوقت الحاضر، أتيتُ إلى مكانٍ كان منحدرًا كبيرًا، ولم يكن هناك أي شيء يدل على أنني ما زلتُ في الأدغال. أووه! وجدتُ حجارة ملساء، ثم

وجدتُ هياكل قديمة. يا له من أمر سخيف! كيف ذلك، وقد أخبرتني ناني أن الهرم الأصغر يقع بالقرب من شاطئ قديم جفَّ ماؤه منذ فترة طويلة في السنوات الأبدية. بالتأكيد، كما يبدو لي، أنها قد نزلتْ إلى ذلك القاع الجاف. يجب أن أجد الهرم الأصغر في الحال.

ولمدة ثلاثين ساعة متواصلة، كنتُ قد اتخذتُ قرارًا بالمرور عبر ذلك القاع إلى هدفي المنشود. لكن طوال هذا العبور لم أر شيئًا من أنوار الهرم الأصغر. كانت مشكلة بالنسبة لي؛ لأن ناني لم تخبرني أن البحر كبير لهذه الدرجة!

وفي الوقت الحاضر، بينما أسير عبر ذلك القاع، سمعتُ أصواتًا غريبة وصراخًا عاليًا جدًّا. كان ذلك طبيعيًّا؛ لأني اعتدتُ على ذلك أثناء رحلتي في العموم. وذات مرة، سمعتُ صراخًا مريبًا جدًّا، علمتُ وقتئذ أن الوحوش على تلك المنطقة قد خرجت تتصارع، ثم ذهبتْ إلى حيث أتت في الليل. ما كنتُ أفعله هو أنني كنتُ أسير فقط في طريقي دون أن ألقي بالًا لأي شيء يحدث حولي، وذلك لئلَّا ينتبه إليّ وحشي فيؤذيني ويعترض طريقي إلى ناني. وكان معي الديسكوس في يدي طوال الوقت، فإذا تعرضتُ لهجوم من أحد الكائنات الوحشية، استطعتُ الدفاع عن نفسي، ومن ثم قتله.

ثم سمعتُ زئيرًا قويًّا كأنه يتجه نحوي، وأقدامًا تدبُّ الأرض دبًّا شديدًا. كان أحد الكائنات العملاقة تجري أمامي تطارد مخلوقًا ما. كان صوتهما بعيدًا إلى حد ما. فاتخذتُ ساترًا في الأدغال حتى لا

يراني أحد. وبعد تلك المطاردة، جئتُ إلى الشاطئ الأبعد لذلك البحر الجاف القديم. أووه! لم يكن هذا هو مكان الهرم الأصغر! تسلل الريبُ إلى قلبي وعقلي، وأخذتني الحيرة تجري في نفسي حتى أوشك عقلي على الشتات! لم أتخيل كيف لم أر أنوار الهرم الأصغر إلى الآن؟! أصابني اليأس، فجلستُ هناك على الشاطئ القديم، ولم أبالِ بشيء قط في تلك الفترة. توقفتُ تمامًا عن السير، وأطلقتُ بصري ليبحث عن تلك الأرض الضائعة. أووه! لاحظتُ أن هناك وهجًا خافتًا من النيران، فهرعتُ إلى هناك. استغرقتْ المسافة ثماني عشرة ساعة، ثم توقفتُ في الساعة السادسة مساءً – كالعادة – فتناولتُ طعامي وشرابي. قد ضللتُ الطريقَ تمامًا يبدو كذلك!

وللمرة الثالثة، بينما أنا في طريقي، كانت أرجل تركض أمامي في ذلك الظلام المرعب القاتم. لم يكن لدي أية قوة داخلية لمجابهة أي خطر. تمنيتُ لو أن أعثر على الخادمة دون ذلك كله، لكن الحقيقة تبدو أفظع على أرض الظلام. المهم، بعد الإجراءات الوقائية التي اتخذتُها حتى أحمي نفسي من أي خطر، وزال الخطر فعلًا، استأنفتُ الطريقَ، وقابلتُ وحوشًا ونيرانًا كثيرة. ثم وصلتُ إلى نهاية تلك الأرض المظلمة، ولم أعثر على أي أثر يدل على أنني في طريقي إلى الهرم الأصغر! حلَّ عليَّ اليأس من جديد، وبالتأكيد قد ضللتُ الطريقَ، ولم يكن لدي أي معرفة هل أنا في طريقي الصحيح أو بالقرب منه، أم أنا سلكتُ طريقًا آخر عبر عالم آخر في مكان

غريب! لم يعد قلبي يتحمل أي نوع من الآلام النفسية كاليأس والإحباط وخيبة الأمل والضياع.

أووه! وبالصدفة البحتة، لاحظتُ أن شيئًا ما في الظلام! حدَّقتُ عيني بنظرة في غاية الدقة ممزوجة ببعض من القلق والتوتر، فإذ بهيكل ضخم لهرم كبير بعيد في الليل يظهر مقابل ضوء يتلألأ من بعيد. جئتُ إلى ذلك المكان، ووقفتُ أمامه مباشرةً. لم يكن لدي القدرة على التعبير عن فرحتي وسعادتي وكيف كان القلب يرقص طربًا عندما وقفتُ أمام الحصن الأخير. بدأتُ في الصياح تعبيرًا عن حالي، وسرعان ما تحليتُ بالحكمة والصمت المشحون بفرحة عارمة.

الفصل الثامن

الخادمة في سالف الزمان

الآن، كما سترون، تحول يأسي المطلق في لحظةٍ إلى فرحٍ كبيرٍ وأملٍ عظيم؛ حتى بدا لي أنني يجب أن أكون مع حبيبتي بعد مدة قصيرة. ومع ذلك، كان هذا أملًا مفرطًا. إنني، حقًّا، لم أكن مدركًا لأي شيء، باستثناء أنني أدركتُ شكل الهرم الأكبر وحسب. وعلمت أن الهرم يقف بالتأكيد على تل وسط تلك المنطقة المظلمة، لأنه فقط قد يظهر ضخمًا وعاليًا، مما دفعني إلى أن أركض سريعًا باتجاهه حتى أقوم بدخول الهرم بقوة.

ركضت لبضع دقائق. أووه! لقد سقطتُ بشدة، وشعرتُ حقًّا كأن رقبتي قد كُسِرَتْ. ولم يكن لدي أية قوة للمضي قدمًا لمدة طويلة، لكنني كنت هناك حيث وقعت بالفعل، وعاجزًا جدًّا، فإذا عثر عليَّ أحد الكائنات الوحشية فسيتمكن من قتلي إذا كان قد حل علي في ذلك الوقت. ومع ذلك، في الوقت الحالي، تمكنتُ من القعود على الأرض، وأمسكتُ رقبتي بيدي أدلكها. بعد ذلك، ذهب الألم، فوقفتُ على قدمي مرة أخرى. لكن، الآن، مضيتُ قدمًا على حذرٍ شديدٍ، يساورني قلق في قلبي؛ لأنه، في الحقيقة، كيف كان هذا الهرم مظلمًا للغاية، إذا كان هذا هو الحصن الأصغر؟! وعلى الفور نشأ في داخلي خوف من أن يكون بيت الشر في ظلام تلك المنطقة، أو أن هناك قوة شريرة تعمل على التظاهر بالحيرة على بصري. ومع ذلك، كان الأمر واضحًا الآن بعد أن شاهدتُ حرائق منطقة بعيدة. ولم أفكر كثيرًا، لكن يجب أن يكون ذلك هو الهرم الأصغر (الحصن).

ثم اتجهتُ إلى تلك المنطقة البعيدة، على حذرٍ تارة، وبشغفٍ تارة أخرى. كانت مدة السير إلى هناك أربع ساعات. كانت هناك حفر متعددة للنيران منخفضة الاشتعال، مما جعل المنطقة هناك ليست مظلمة تمامًا. فلما وصلتُ هناك، لم أعد أرى أية حرائق أو ألسنة اللهب المشتعلة؛ لأن الجزء الأكبر من قاع التل كان يمثل حاجزًا كبيرًا، مما دفعني إلى التخمين بأنني قريب من التل فعلًا. والآن، في الوقت الحاضر، صعدتُ إلى قمة التل، الأمر الذي استغرقتُ في الوصول إليه ثلاث ساعات. أووه! ما هذا الأمر المثير للاشمئزاز؟! المكان مهجور وصامت تمامًا! كنتُ أشعرُ بالخوف الشديد من ذلك المكان المهجور؛ قد كنتُ أشعر بداخلي من البداية أنه لا أحد هناك، وإن ما ينتظرني فقط هو الدمار والقتال مع أحد الوحوش المفترسة. لذلك قررتُ النزول من قمة التل في هدوء تام حتى لا أتعرض لأذى أنا في غِنى عنه.

سلكتُ طريقًا بعيدًا عن التل، لم أكن أي وِجهة أسير فيها؛ لم آبه لذلك قط. والآن، في الوقت الحاضر، أصبحتُ على شاطئ البحر القديم! لم أكن أعرف أتيت إلى هناك؟! قعدتُ وحيدًا حزينًا ضعيفًا في حيرة من الأمر كله: (النفسُ تطمعُ والأسبابُ عاجزةٌ، والنفسُ تهلكُ بين اليأسِ والطمعِ)[1]. كانتْ نفسي تحدثني أن هناك

---

[1] هارون الرشيد.

بالتأكيد لم يقل ذلك ويليام هوب هودسون، لكنها من تعريب ما قاله بطل الرواية في ذلك الموقف حتى يفهم القارئ العربي بثقافته العربية.

كائنات بهيمية ضخمة في الهرم المظلم أعلى التل، ولم أشك أن الهلاك قد أهلك شعوب الهرم الأصغر، وما بقيت إلا تلك الكائنات وحسب. وإن كان تفكيري ذلك صحيحًا، فإني قد تأخرتُ في إنقاذ الخادمة. وسأكون سعيدًا حين ألتقي بأي كائن من تلك الكائنات البهيمية، فنتقاتل، فأموت سريعًا على يديه؛ لأنه لم يكن هناك شيء في هذا العالم بأكمله يسعدني أو لم يكن هناك فائدة من بقائي حيًّا.

لم تدركْ ما الذي كنتُ أعاني منه إزاء ذلك. لقد كنتُ على يقينٍ أنَّ الهرم المظلم هو نفسه الحصن الأصغر (الهرم الأصغر)؛ كان ذلك اليقين نابعًا من قلبي، ولم يراودني شك في ذلك البتة. ثم قعدتُ فترةً من الزمن وأنا في حيرة: هل أقوم بإرسال إشارة الماستر وورد إلى ناني أم لا؟ هل هي على قيد الحياة أم لا؟ لكن كلما أفكرُ في ذلك الأمر، أتذكرُ أنه من الممكن أن تظهر لي إحدى قوى الشر في الظلام لتدمرني، أو تقتلني؛ لذا، وجبَ عليَّ أن أنتهي من ذلك التفكير والحزن اللذين يسيطران عليَّ. وقفتُ على قدمي، فنظرتُ حولي إلى ظلام تلك المنطقة الدامس. غلبتْني العاطفة، فأرسلتُ إشارة الماستر وورد ثلاث مرات.

أووه! اهتزَّ الأثير من حولي، وسمعتُ صوتًا جميلًا منخفضًا يأتي إليَّ من نهاية العالم. كان الصوتُ هو صوت ناني، وصوت ميرداث، ثم ناداني من بعيد باسم حبي القديم. كنتُ على وشك الجنون من شدة الفرح الذي أذهب عني الحَزَن. ذلك الأمر الذي لم يحدث لي من ذي قبل على الإطلاق! كنتُ على يقين من داخلي أن ناني على قيد الحياة، لكن الأمر على أرض الواقع يرفض ذلك أن

يثبته. ذلك الواقع الذي كان يعترض طريقي دائمًا، فكانت بالنسبة لي بعيدة المنال. الآن، وقبل أن أتحدث إلى ناني بعد إشارة الماستر وورد، لاحظتُ أن شخصًا كان بعيدًا عني قليلًا، ثم اشتعلتْ حفرة نار بالقرب مني، وكان الأمر كما لو أن روحي كانت على علم بذلك، فنما علمي به فيما بعد. ذلك الشخص انطلق سريعًا إلى شجيرة كانت بالقرب من حفرة النار. نظرتُ نظرةً فاحصةً إلى ذلك الفضاء الذي يحيطني من جانب، ثم إلى حفرة النار، وجدتُ جسمًا صغيرًا راكعًا على الأرض يبكي هناك. إنها الخادمة؛ قد كانت نحيفة، وبدا لي أنها كانت في حالة من اليأس كالتي حلَّتْ بي. كانت ضعيفة معنويًّا؛ لم تكن تستطيع أن تصرخ أو تُرسِلَ لي إشارة من الماستر وورد.

أووه! كتمتُ أنفاسي، ثم ناديتها بصوت رخيم: ميرداث! خرجتْ من الأدغال حيث كنتُ هناك، وتحدثنا بكلامٍ بشري حقيقي. توقفتْ عن البكاء، فنظرتْ إليَّ بخوفٍ شديدٍ، ثم اخترقتْ أشجار الأدغال، وانطلقتْ. انطلقتُ وراءها، حيث أن قلبي كان يخاطبني أنه يجب أن أحملها على ذراعيَّ؛ ولأجل ذلك كنتُ معها إلى الأبد. ثم توقفتُ قليلًا؛ لأنها كانت ناني – بالفعل – وكانت ميرداث أيضًا! كانتْ جميلة جدًّا، وكان جمالها مشوبًا ببكائها وحزنها. في نفس اللحظة التي وقفتُ أمامها في الأدغال وتقابلنا، صرختْ ثم سقطتْ على الأرض من شدة الخوف والرعب؛ إذ أنها رأتْ رجلًا بشريًّا عاديًّا مثلها! يبدو أن هلاك الهرم الأصغر بما فيه من بشر قد أفنى الجميع عدا هي. ذلك الرجل البشري لم يقتلها، ولم يؤذها قط. في هذه اللحظة، قلتُ لها الماستر وورد بصوتٍ عالٍ، وقلتُ اسمي،

فقلتُ لها: إنه أنا ذلك الشخص. صرختْ صرخة المشتاق، وهي تركض نحوي، فحضنتني بيديها الصغيرتين الناعمَتين، ثم نَحَبَتْ نحيبها الطفولي. صارتْ كالطفلة في يدي أخففُ عنها آلامها. ثم توقفتْ عن البكاء.

لَمَّا تناولتْ طعامًا أو شرابًا؛ فقد كادتْ أن تموتَ جوعًا. وكانت ملابسها ممزقة وبالية، فخلعتُ مِعطفي ووضعته على كتفيها ليحميها من البرد القارس. ثم أخرجتُ من حقيبتي طعامًا لأقوم بطهيه سريعًا من أجلها، وعملتُ مَرَقًا[1] ساخنًا حتى تحتسيها، لكن سرعان ما سكبتْ معظمها على الأرض لشدة ارتجافها. احتستْ بعضًا من المَرَقِ، وبعدما انتهت منها، أمسكتُ يديها، مما جعلها تشعر بالسلام والقوة والدفء أيضًا. قد كان المَرَقُ مفيدًا لها حيث استعادتْ بعضًا من قوتها ودفئها.

بدأتُ في الحديث إليها، وكانتْ آذانها مصغية. لَمَّا تكن لتمتلك القدرة على الإفصاح عما بداخلها. بكت مرتين: مرة بسبب وفاة والدها، والثانية بسبب هلاك جميع شعب الهرم الأصغر، والناجي منهم قد هرب بعيدًا سريعًا في أرض الظلام. فيما بعد، علمتُ منها أن قوى الشر اتخذتْ إجراءات وقرارات صارمة عليهم جميعًا، حتى إن بعضًا من هؤلاء الناجين كانوا في قمة الضعف المعنوي والمادي بسبب فشل التيار الأرضي. وقد جاءت ناني مع هؤلاء، بعدما قُتِلَ والدها على يد أحد الكائنات البهيمية الوحشية.

---

[1] المَرَقُ: ما أُغْلِيَ فيه اللحمُ فصار دسمًا.

وكان هناك ثلاث خادمات مع ناني، عندما هربتْ في الظلام. ثم هاجمتهم تلك الكائنات وهن نائمات بين الأشجار، فخطفوا اثنتين منهن، وقد لاذت الثالثة بالفرار، كما فعلت ناني في الليل. مرَّتْ هذه الحادثة المروعة لشعوب الهرم الأصغر منذ فترة طويلة جدًّا، ولم تستطع ناني أن تخبرني عبر أية وسيلة؛ لأنها كانت في الحالة التي رأيتُها عليها منذ قليل.

إن هذا هو السر وراء عدم استطاعتي استقبال أي إشارة من إشارات الماستر وورد التي كانت تناديني بها. عندما كانت ترسل إشارة الماستر وورد إليَّ، كانت بذلك تُخبر الوحوش بأنها هنا في تلك المنطقة. لذلك كانت تلك الكائنات تهاجمها، وبدورها كانت ناني تختبئ بين الشجيرات تارة، وبين الصخور تارة أخرى. إن في معظم الأوقات كانت تهرب منهم وتنجو بحالها. كانت من كَثرة الهجوم عليها فقدَتْ قدرتها على إرسال إشارة الماستر وورد، وكانت إذا ما أرسلتْ إشارة واحدة، صارت ضعيفة جدًّا، كما قلتُ آنفًا إن صوتها كان ضعيفًا للغاية.

تناولت الطحالب وأوراق الأشجار طعامًا لها، ولم يكن لديها ما تأكله من الطعام البشري. كانت ثيابها ممزقة وبالية بسبب تلك المطاردات حتى أصبحت شبه عارية. وإذا ما ظمأت، شربتْ من مياه الينابيع الساخنة المليئة بمادة الكبريت، مما سبَّبَ لها مرضًا غريبًا ودخل السم في جسدها.

كانت وحيدة تمامًا، حيث صادفتْ أن شعوب الهرم الأصغر كانوا يتسارعون إلى الاختباء بين أشجار الأدغال وغيرها، كانت تناديهم وتخبرهم أنها إنسان بشري مثلهم، لكن لا حياة لمن تنادي! كما أن قشعريرةً قد سرتْ في جسدها بسبب البرد القارس، فكانت تذهب إلى أية حفرة من حفر النار للتدفئة، إلا أن ذلك كان يجلب إليها الوحوش والكائنات المهلكة، فكانت تجري بعيدًا عنهم وتختبئ بعيدًا عن حفرة النار مُجبرة على البقاء في البرد وحدها. أدركتْ أن الموت في كل مكان يحاصرها، إلا أن شيئًا ما قد حدث!

استقبلتْ إشارة الماستر وورد، وكان ينبض في قلبها وروحها أملًا لكي تُرسِل لي إشارة الماستر وورد، لكن إشارتها كانت ضعيفة لأقصى درجة. أخبرتني بكل شيء بتفاصيله الدقيقة حتى هذه اللحظة التي نحن الآن فيها. أما الآن، في الوقت الحاضر، استلقتْ على ظهرها استعدادًا للنوم. نامت في أمان تام لم يسبق له مثيل منذ فترة طويلة للغاية، وبعد هلاك الهرم الأصغر بمَن فيه. وبينما كانت ناني نائمةً، خلعتُ مِعطفًا آخر كنتُ أرتديه لأُلبِسها إياه. كنتُ بجانبها لحمايتها من أي شر قد ينال منا. استغرق نومها عشر ساعات كاملة. ثم استيقظتْ وأنا بجوارها أخشى من أي تهديد خارجي. استعادتْ قوتها وصحتها وذاكرتها، فكنتُ في سعادة غامرة من أجلها. ثم عادتْ للنوم مرة أخرى، وعندما استيقظت للمرة الثانية، سألتني: كم عدد الساعات التي قضيتها في النوم؟ قلتُ: أربع وثمانون ساعة؛ أي ثلاثة أيام ونصف اليوم. كنتُ حريصًا جدًّا على معرفة عدد الساعات حتى لا نضيع مرة أخرى في ذلك الفضاء الواسع الشاسع أو يهاجمنا أي من وحوش هذه المنطقة.

وفجأةً، صاحتْ، وخلعتْ عنها مِعطفي الذي كانت ترتديه، ثم ارتمتْ في حضني، ولم تخجل من جسدها شبه العاري وهي في ذلك الوضع. أما أنا فكنتُ على وشك الإغماء حقيقةً لقلة النوم والراحة. فلمَّا أدركتْ ذلك، قامتْ لتأخذ حقيبتي وتضعها تحت رأسي كوسادة أضع رأسي فوقها لأنام. كانت هذه اللحظة هادئة تمامًا، ولم يكن في العالم من حولنا سوانا. ثم قمتُ بأخذ معطفي ووضعته على جسدها ثانيةً، فلم تلبث أعيننا يقظة إلا دقائق قليلة للغاية.

استيقظنا بعد ذلك، ثم قمتُ من مكاني لأطهو الطعام، لكنها أصرَّتْ على طهي الطعام بنفسها، وقد كان.

لم أكن أتخيل أنني استغرقتُ اثنتي عشرة ساعة في النوم. جلستْ الخادمة بجانبي، وكانت في غاية جمالها وحُسنها، فقبَّلتني قُبْلَة الحبيب لحبيبه، مما دفعني إلى أن أُقَبِّلها خاصةً وأن شعرها كان يتطاير مع نسمات الهواء العليل. ثم قمنا بتجهيز ما يلزمنا من الطعام والشراب ما يكفينا حتى لا نلجأ إلى قتل أو ذبح أي مخلوق من تلك المخلوقات الوحشية، فنأكل لحمه.

بعد ذلك؛ قمنا بتعبئة كل مستلزماتنا، وقبل انطلاقنا طلبتُ منها أن تصنع لي حذاءً من ثيابها الممزقة؛ لأن حذائي قد صار متهالكًا تمامًا. فصنعت لي الحذاء، وبعدئذ، وجبَ علينا الخروج من تلك المنطقة المقفرة. ثم انطلقنا في رحلتنا سويًّا. لم تعد الرحلة مليئة بالتعب والخوف والرعب، وإنما كانت عبارة عن فرح وسرور وسعادة بالغة.

انطلقنا حتى وصلنا إلى قاع البحر القديم، وتناولنا الطعام مرتين في ذلك الوقت. كانت الخادمة ضعيفة ومرهقة جسديًّا، رغم ذلك لم تخبرني بشيء من هذا القبيل. أما بالنسبة لي، فكنتُ أعرف ما بها، فأخذتها بين ذراعيَّ واحتضنتها، ثم قَبَّلتُها، وحملتُها كالطفل الرضيع. ففي الساعة السادسة مساءً، توقفنا عن السير، وتناولنا طعامنا وشرابنا. كان من المفترض أن نذهب إلى أية حفرة نار حتى نستمد منها التدفئة اللازمة؛ قد كان البرد قارسًا في تلك الليلة.

حاولتُ أن أحملها بين ذراعيَّ ثانيةً، لكنها رفضت، وقالت لي: إنني بصحة جيدة الآن. لم أعارضها؛ بل كنتُ أسعى إلى تحقيق ما تريد أن تفعله. سارتْ بجانبي في صمت وهدوء شديدين. لقد كانت نظراتها إليَّ مشحونة بالحب والود والراحة النفسية. وعندما انتبهتُ إلى أن مِعطفي كان على كتفي وليس عليها، خلعتُه لأجعلها ترتديه، لكنها رفضتْ، ثم وقفتْ على أصابع قدميها لتُقَبِّلَني، وأقنعتني أنها ليست بحاجة إلى المِعطف؛ لأنها الآن ترتدي بِزَّته المتشابكة مثل الدرع.

قد كنتُ حازمًا معها في ارتداء مِعطفي، فالبرد قارس حقًّا، فابتسمتْ في وجهي، ثم استدارتْ بوجهها لتبكي! أدركتُ وقتئذٍ أنها في حالة من الضيق. لم أكن أتخيل أنها فهمتْ من كلامي الحازم معها أنني لا أحبها؛ بل كان ذلك لأني أحبها. ثم لاحظتُ أنه ليس من الحكمة أن أكون حازمًا في كلامي معها. ثم اتفقنا على أن كل واحد منا يرتديه ساعة، وقد كان. كانت من شدة حرصها على الوقت، سألتني ثلاث مرات: كم الساعة الآن؟ فإذا ما انقضتْ ساعة كاملة، خلعتْ المِعطف وألبستني إياه.

وبعد خمس ساعات من السير، لاحظتُ أنها مرهقة جدًّا، رغم تظاهرها بأنها عكس ذلك. كنتُ أبحثُ عن بعض الصخور حتى نستريح هناك ونختبئ، ومن ثم يمكننا أن نجد كهفًا بجوارها أو حفرة للنار فنستمدَّ منها على التدفئة اللازمة. وبالفعل، وجدنا ذلك المكان الآمن، وبجواره حفرة للتدفئة أيضًا. ثم وضعتُ الديسكوس بجواري في مكانٍ فيه ضوء ولو بسيط، حتى يتسنَّى لي معرفة ما إذا

كان هناك أي مخلوق غريب أو أي شيء من الزواحف، فيكون لدي القدرة على تلاشيها فورًا. كنتُ سعيدًا جدًّا في تلك اللحظة؛ لأن ناني في حمايتي وتحت رعايتي.

عندما وصلنا إلى حفرة النار، قامتْ الخادمة بطهي الطعام لنا. ثم خلدنا إلى النوم فور انتهائنا من تناول الطعام والشراب. بالنسبة لها، لم تنم إلا عندما وضعتْ رأسها على إحدى ذراعيَّ، فنامت. ثم خلعتُ مِعطفي، وألبستُها إياه، فرفضتْ بشدة! يبدو أن لديها شكًّا في شيء ما. كنتُ صارمًا وحازمًا في ذلك الأمر؛ لأنها لم تكن ترتدي ملابس كافية لتقيها من برودة المكان. في نهاية المطاف، ألبستُها إياه، ووضعتُ الحقيبة تحت رأسها لتنام، ثم جثوتُ على ركبتي لأعطيها قُبلة قبل النوم، لكنها استدارتْ بوجهها على الجانب الآخر، ووضعتْ يديها على وجهها حتى لا ألمسها. قد أحزنني ما فعلته حقًّا. كنتُ دائمًا أحاولُ ألَّا أجبرها على شيء قط. أما بالنسبة لي، فحاولتُ أن أنام، لكن دون جدوى! كنتُ منزعجًا مما حدث، وكاد قلبي يرتاب في الأمر! أما هي فقد نامتْ فورًا، هكذا ظننتُ. لكن يبدو أن ظني لم يكن في محله! فإذ بها لم تخلد إلى النوم، لكنها كانت تتظاهر بالنوم أمامي. وعندما أدركتْ أنني استغرقتُ في النوم، ولم أعد أدري بما يحدث حولي، قامتْ بخلع المِعطف من على جسدها، وألبستني إياه، ثم قَبَّلتْ يدي بقُبلة ناعمة ورقيقة. لقد كانتْ تتوقُ إلى أن تكون قريبة مني جدًّا بل ملتصقة بي؛ قد كان نومها طفولي، حتى حركاتها أثناء النوم ينبئ عن براءتها وساذَجتها وحبها أيضًا.

وعندما استيقظنا سويًّا، أخذتُ الحقيبة، وأخرجتُ منها طعامنا، ثم فيما بعد، استخدمتُ ملابسها الممزقة لصنع وسادة. كانت تلك واحدة من إحدى نزواتها الشقية المليئة بالبهجة والأُنس والمرح والهرج والمرج. وظللنا هكذا في هذه البهجة وذلك الأُنس، إلى أن خطر ببالي، في ليلةٍ ما، أن تنام هي بين ذراعي دون اللجوء إلى وسادة. ومن علامات حبها لي بل أقول عشقها المجنون لي، أنني استيقظتُ ذات ليلة، وكانت هي بين ذراعي نائمة، فأبعدتُها عني دون أن تشعر، ثم قمتُ من مكاني لأصنع مَرَقًا لشربه. وعندما استيقظتْ هي أخذتْ كأسًا من المَرَقِ قبل أن أذهب لإيقاظها من نومها، فضربتْ على يدي بيدها الناعمة، وأخذتها مني لتشرب بعضه، ثم أعطتني إياه لأشرب أنا أيضًا. وبعد أن انتهينا، وَبّختني كثيرًا لأنني لم أُوقِظها من النوم حتى تقوم هي بخدمتي. يا لها من حبيبة لا مثيل لها!

كنتُ متكئًا على صخرة من الصخور على فوهة الكهف الصغير الذي كنا مختبئين فيه، فأتت إليَّ مسرعةً، وأخذتْ ذراعي لتضعه حولها. لكن، قبل ذلك أولًا، وضعتْ الكأسَ بالقرب من فمي، فقمتُ بتقبيلها. كانت تلك هي طريقة قديمة خاصة بميرداث حبيبتي، فرقص قلبي طربًا لأني استلهمتُ روح حبيبتي القديمة في روح تلك الخادمةناني. ورغم ذلك، كانت ميرداث مختلفة تمامًا في نظراتها إليَّ، لكن كانت ناني بارعة في الجمال. التزمتُ الصمتَ معها؛ لأن قلبي كان مليئًا بالذكريات. كانت ناني تضع الطعامَ على فمي لآكله، مما أثار ذكرياتي وذاكرتي القديمة مرة أخرى.

وما لبثنا بعد أن انتهينا من الطعام والشراب إلا أننا كنا على استعداد لرحلتنا. فجمعنا جميع أغراضنا، وساعدتُ ناني على النزول من أعلى إلى أسفل، وعندما وقفنا أخيرًا أسفل الصخرة، سألتها عن قدميها هل هما بخير، فأخبرتني أنهما بخير. فكنا نأكل ونشرب في أوقاتنا الثابتة المعتادة كل يوم.

وفي الساعة الخامسة مساءً، وصلنا إلى منحدرٍ كبيرٍ من الأرض. أووه! قد وصلنا إلى الجزء العلوي من الجانب البعيد من البحر القديم، ثم استطعنا أن ننظر من أعلاه على تلك الأرض الواسعة.

الفصل التاسع

الطريق إلى البيت

كانت رحلتنا ممتعة ومسلية، بعد تلك الوحدة التي كنتُ فيها، وذلك اليأس الذي دمرني. إنها الجميلة ناني رفيقتي وصغيرتي. كان الطريق الذي سلكناه مليئًا بحفر النار، مما صنع من الرحلة متعة أخرى، حيث كانت مصدرًا للتدفئة. ثم وقفنا في مكانٍ ما من فوهة المضيق المظلم الذي سلكته من قبل، ومن خلال ألسنة اللهب بتلك الحفر، استطعنا أن نرى قاع البحر القديم بوضوح.

وسرعان ما أقنعتُها أنه ينبغي علينا أن نرتاح الآن لكي نتمكن من استئناف الرحلة بنشاط وحيوية. فوافقتْ، لأنها كانت متعبة حقًّا. فاتجهنا إلى إحدى حفر النار للتدفئة، والتي كانت في الجهة الشمالية من تلك المنطقة. فدخلتُ – أولًا – إلى الصخور، فربما كان أي كائن حي مختبئ، فلا يؤذينا أو يُعكر صفونا. وعندما دخلتُ هناك، لم أجد شيئًا وحشيًّا ضخمًا، بل وجدتُ ثلاثة ثعابين، وعلى مسافة قليلة كان هناك عقربًا. لم أترك المكان إلا وقد قضيتُ عليهم تمامًا. ثم ناديتُ عليها، فدخلتْ، ثم قامتْ بإعداد الطعام، فأكلنا وشربنا، وتشاركنا في ارتداء المِعطف؛ لأننا لم نحصل على التدفئة الكافية من حفرة النار. ثم ذهبنا إلى النوم، وأثناء نومي – كما صارت تلك عادتي مع ناني – أن أكون جاهزًا لأي عدوان خارجي، فكانت أسلحتي بجواري.

كانت مدة نومنا سبع ساعات كاملة، ثم استيقظنا فجأةً سويًّا على صوتٍ عالٍ يصرخ. صراخ عظيم ومرعب في ظلمة الليل! فاكتشفنا أنه كان صراخًا لبعض البشر الفقراء في تلك الليلة. لم يكن في وسعي فعل أي شيء حتى أكون على علم تام بحقيقة الأمر، ولم

يكن في مقدوري أن أتسرع أو أترك ناني بمفردها. ثم ذهبتُ متوجسًا إلى فوهة الصخرة، لأرى ماذا يحدث، وإن كان بمقدري تقديم أية مساعدة لأولئك، أم لا. سمعنا أصواتًا أخرى مزعجة كالتي سمعتُها قبل أن ألتقي بالخادمة؛ كانت زئيرًا قويًّا وشديدًا. بدأت الخادمة ترتجف، فوضعتُ ذراعي حولها لكي أُدْخِلَ على قلبها الطمأنينة والسكينة؛ فقد سمعتْ مثل هذه الأصوات كثيرًا قبل ذلك.

وعلى حين غفلة، جاء صراخٌ مخيفٌ جدًّا بالقرب منا، وكان الصراخ لخادمة شابة تُقتَل بوحشية، مما جعلني أستشيط غضبًا حتى تمكَّن الغضبُ مني، الغضب الذي جعل الخادمة التي معي أجهشتْ بالبكاء. إن المثير للدهشة والاستغراب أن صراخ الخادمة الشابة انتهى فجأة! ثم سمعنا صرخات متتاليات، وصيحات من رجال عمالقة، وصوتًا قويًّا لأقدامهم يدب الأرض دبًّا، تجري في كل مكان. كان ذلك قد أثار فضولي وفضول الخادمة ناني، فتسللتُ إلى فوهة الكهف الذي كنا فيه، فشاهدتُ بشرًا كغُثاء السيل يهرولون ويصرخون ويبكون رجالًا ونساءً، منهم مَن كان يرتدي شيئًا بسيطًا من الملابس الممزقة، وبعضهم كان عاريًا. وعندما قطعوا أشواطًا طويلةً فوق الأرض، سمعتهم يصيحون صياحًا غريبًا ومرعبًا للغاية، فأدركتُ وقتئذ أن هؤلاء الرجال العملاقة قد أخذوا الحياة من بعض البشر الفقراء. ثم عاد الصمت لكي يعم المكان بأكمله.

وكما أعلم أن شعوب الهرم الأصغر وُلِدُوا منذ فترة طويلة من الزمن لأبوين أصابهما الجوع بسبب نقص التيار الأرضي خلال مائة ألف سنة أو أكثر. أما ناني فكان أمرها مختلف تمامًا. ثم نزلتُ من

فوهة الكهف في هدوء شديد، فوجدتُ أن ناني تبكي بكاءً حارقًا، فذهبتُ إليها لتطمئن. وفي هذه اللحظة، رأيتُ على حافة المضيق المظلم تلك الخادمة العارية تجري بسرعة كبيرة، فنزلتُ إلى الأسفل، فإذ بها هناك في ذلك المكان. قد بدا لي أنها في أشد حالات الضعف والخوف، فأدركتُ أنها في نفس اللحظة لماذا ذهبتْ متخفية وبسرعة بهذه الطريقة. فوجدتُ رجلًا أتى ذا شعر كثيف يسير على هيئة القرفصاء، وأنه عريض مثل الثور، نزل إلى الأسفل كأنه يعرف بمكان الخادمة، وانقضَّ عليها دون إحداث صوت. فأسرعتُ إلى الأسفل، وكنتُ قد استشاط غضبي، فقفزتُ من أعلى إلى أسفل على قدمي، لكن لم أصب بأذى. قبل ذلك، كان لدي الوقت لإنقاذ الخادمة التي مزقها ذلك الرجل الذي يسير على هيئة القرفصاء. صرختْ بصوتٍ عالٍ، ثم فاضتْ روحها وهي بين يدي ذلك الوحشي. لقد انفطر قلبي من شدة المنظر الوحشي، حتى إنني لم أشعر بنفسي إلا وقد قفزتُ على ذلك الوحشي، وقد ملأ طبق الديسكوس الفراغ بصوته المعروف في القتال. قفز الوحشيُّ عليَّ، فظننته يفعل بي كما فعل بالخادمة المسكينة، فضربته بالديسكوس، فسقط الوحشي على يديه، ثم أمسكني من قدمي ليمزقني إربًا، إلا أنني لم أعطه الفرصة، فضربته ضربةً ثانيةً بالديسكوس، فلم يبق منه سوى مخلب واحد من المخالب المتعددة. وعلى الفور، قضيتُ على ما تبقى منه تمامًا. أما الخادمة المسكينة، أسلمتْ روحها بين يدي ذلك الوحشي القذر، فأخذتُ جثتها الممزقة، ثم ألقيتها في حفرة النار. كان الأمر مأساويًّا للغاية.

ثم استدرتُ إلى الكهف متجهًا إليه، ولم أكن أصدق كل ما حدث، لكن لا أدري أشاهدتْ ناني كل هذا المشهد المأساوي أم أُغْمِي عليها؟! أووه! هرولتُ إليها، فوجدتُها تحمل سكينًا قد أعطيتُها إياه من قبل لتتمكن من الدفاع عن نفسها. قد كانت شاحبة الوجه، وقوية، وظاهرها الثبات وعدم الخوف، ثم أجبرتها على أنه ينبغي أن نترك ذلك المكان فورًا. ثم أخذتها بين ذراعيَّ، وحملتها كالطفلة على كتفي بعد تلك الأحداث المروعة، ثم صعدنا إلى الكهف الصغير ثانيةً.

مرَّتْ ساعة أو يزيد قليلًا في الاستراحة وتناولنا الطعام والشراب، ثم انطلقنا على حذر شديد. وبعد أن نزلنا إلى قاع البحر الجاف لمدة ساعة، اتجهنا إلى جهة الجنوب الغربي من الطريق، فابتعدنا عن الشاطئ. وحسب ما أخبرتني به الخادمة أننا قطعنا مسافة بعيدة إلى حدٍّ ما، مما جعلنا نتجاوز المنطقة التي كنا قد قصدناها، حيث كان الغاز السام موجودًا. طلبت مني ناني أن تستريح من السير على الأقدام، وحتى يتسنَّى لي علاجها مما أصابها في ذلك القتال الشرس وتلك الأحداث المروعة؛ لأنها من شعب الهرم الأصغر الذي لم يكن قويًّا بدنيًّا ونفسيًّا بالقدر الذي يتمتع به شعب الهرم الأكبر. ظللنا نبحثُ عن كهف أو مكان آمن لمدة ساعة، لكننا لَم نجده. ثم قلتُ لها: إنه يجب أن نقوم بتجميع بعض الصخور سويًّا ونصنع كهفًا صغيرًا بأنفسنا. قد كانت تبادلني نفس التفكير، فوافقت في الحال، فبدأنا في ذلك. فعلتُ ذلك الأمر أنا وهي

كثيرًا في السنوات السابقة – قبل تلك الأبدية – عندما كان المقصود من كلمة (هي) ميرداث.

انتهينا من إنشاء كهف صغير. لم يكن آمنًا بالقدر المطلوب، لكنه على أقل تقدير نستطيع أن نختبئ فيه بعيدًا عن أعين الكائنات الوحشية.

دخلنا الكهف الصغير، وتناولنا طعامنا وشرابنا-كعادتنا- وتشاركنا في ارتداء المِعطف الكبير ليحمينا من قسوة البرد، واستغرقنا في النوم في هدوء وسكينة.

وبعد مضي بضع ساعات، قمتُ بهدوء من جانب ناني، وسحبتُ ذراعي من تحت رأسها بهدوء شديد حتى لا تستيقظ. ثم اتجهتُ إلى فوهة الكهف الصغير الذي أنشأناه، فخلعتُ ملابسي. كنتُ قد أخذتُ مرهمًا وعلاجًا معي، فوضعتُ بعضًا منه على أماكن الجروح والإصابات التي أحدثها الوحشي في جسدي. وأثناء ذلك، تأوهتُ بسبب الجروح المؤلمة، فاستيقظتْ ناني على ذلك الصوت، فظنتْ أن وحشيًّا ألحق ضررًا بي. ففزعتْ من نومها، وأتت إليَّ سريعةً، وكانت غاضبة لأني أفعل ذلك وحدي! أخذتْ مني المرهم والعلاج وحملتني بين ذراعيها إلى داخل الكهف، وكانت هي مَن تطبب لي جراحي.

ذهبنا إلى الكهف الصغير الذي أنشأناه، ثم بعد مدة من الزمن صعدنا إلى أعلى البحر القديم الجاف، حيث كنا قبل ذلك أسفله، وعندما وصلنا إلى قمة الشاطئ ألقيتُ نظرةً على تلك المنطقة التي كنا فيها. لاحظتُ أن هناك حفرة نار عملاقة على مرمى البصر، ثم

شاهدنا بأعيننا كائنات وحشية تنطلق في اتجاه تلك الحفرة العملاقة، مما دفعنا إلى أن ننحني حتى لا يرانا أحد. قد كان الرعب والخوف قد غلبنا. ثم كان اتجاه رحلتنا بين الغرب والجنوب الغربي في هذه المنطقة؛ لأنه كان من الذكاء والحكمة أن نسلك طريقًا نتلاشى فيه أي خطر يهددنا ونحن في الطريق إلى البيت. سألتُ ناني عن الخطر في تلك المنطقة، فأجابت بأنها عانتْ أَيمَّا معاناة وكادت تموت فعلًا هناك. ثم تبين لي، بعد أن شرحتْ لي كل ما تعرفه عن الخطر في تلك المنطقة، أن يجب ألَّا نقترب الآن من بعض البراكين ذات النار الهادئة على جانب من جوانب فوهة المضيق المظلم؛ لأنه كان هناك رجال مستذئبون محيطون بالمضيق المظلم. لم أسألها بعد ذلك الحين عن أي شيء آخر إلا إذا كان سؤالًا ضروريًّا يتعلق بالخطر القائم الذي من المحتمل مواجهته.

سلكنا طريقنا بحذرٍ شديدٍ حتى لا نكون عُرضة للهجوم من المستذئبين، وكثيرًا ما كنا نزحف حفاظًا على حياتنا. وبهذه الطريقة مضت ست ساعات، ثم توقفنا لنأكل ونشرب. استأنفنا الرحلة حتى وصلنا إلى منطقة منخفضة في وادٍ واسعٍ، حيث كانت شديدة العمق والظلمة. قد كانت ظلمة قاع البحر الجاف القديم ليست كما ظلمة الوادي، بل أخف قليلًا. نزلنا إلى تلك المنطقة لنحتمي بها، إلا أنه بعد ساعتين من تناولنا الطعام، سمعنا صوتًا غامضًا في الليل. فتركنا ذلك الوادي، واستأنفنا الرحلة، فذهبنا بعيدًا عنه، فوجدنا أن بعضًا من الناس تركض في الظلام حُفاة الأقدام! ظننتُ أنهم من شعوب الهرم الأصغر، ففكرتُ في أن أُرسِلَ إشارة الماستر وورد، لكن كان

أمننا وسلامتنا الأهم. قد سمعنا صوتًا في تلك المنطقة آتيًا من بعيد، فوقع الرعب في قلب الخادمة؛ لأنها كانت تعرف هذا الصوت، وتعرف أنه من أحد الكائنات الوحشية في تلك المنطقة. ففهمتُ أنه يجب أن أحمي نفسي.

أخذتُ سكينًا وأنا لا أستطيع أن أتمالك جيدًا؛ وقفتُ مهتزًا مرعوبًا، فأمسكتُ بالديسكوس بيدي الأخرى، وكنتُ ألتفت إلى مصدر الصوت. وفي الوقت الحالي، خلعتُ ما كان يغطي مِعصم يدي، حيث كانت الشريحة. اقترب الصوت مني أكثر فأكثر، فإذ بالخادمة ترفع ذراعيها لتسحبني، فوقفتْ مقابلة لي. ثم لاحظتُ وهجًا بعد ذلك، حيث إن جذع شجرة كان عبارة عن كتلة من النار يتحرك باتجاهنا. فأبعدتُ الخادمة عن جذع الشجرة الناري، وفي لمح البصر، اختفى ذلك الجذع سريعًا، فلم نعد نرى شيئًا! كاد ذلك الجذع أن يسحب تلك الخادمة ليلتهمها ويقضي عليها تمامًا. أجهشتْ الخادمة بالبكاء، لأنها كانت على وشك الموت المحقق، أما الآن، فنظرتْ إليَّ بأعجوبة؛ لأننا الآن ما زلنا على قيد الحياة.

وبمجرد أن أدركتُ أننا لم نعد نعاني من أي خطر آخر، تذكرتُ أنني كنتُ أعرفُ أن نفسي قد أُصِيبتُ بالإغماء. كما أن الخادمة واجهت الموت بشجاعة وإقدام، ولم تجهش بالبكاء كعادتها السابقة؛ بل بذلتْ قصارى جَهدها لمساعدتي وإنقاذي وإنقاذ نفسها أيضًا، كما أنني بذلتُ كل ما في وسعي أن أعيدها إلى الحياة مرة أخرى.

وفي الوقت الحاضر، استأنفنا الرحلة مرة أخرى عبر ذلك الوادي الفسيح، فانطلقنا ونحن مطمئنين لمدة استغرقتْ اثنتي عشرة ساعة حتى أُرْهِقَتْ أجسادنا. أما من الجانب المعنوي، فقد كانت قلوبنا تتغنى وترقص طربًا بحياتنا التي أنقذناها من الموت المحقق.

❁❁❁

يبدو أن الصراخ لا يريد أن يغادر آذاننا، ويلاحقنا في كل مكان! بعد ثلاث ساعات من السير سمعنا صراخًا بعيدًا، فصعدنا إلى حافة الوادي الفسيح. لقد سئمنا من ذلك الوادي الكئيب، ونتوق إلى أن نغادر هذا المكان من غير رجعة البتة، لكن من الضروري أن نرتاح قليلًا في ذلك الوادي، ثم نغادره بالكلية. قد تناولنا بعض الطعام، ثم خطر ببالي أنه يجب أن أبحث عن حمام ساخن بجوار حفرة نار حتى يستعيد جسدي وجسد الخادمة قوته ويرتاح من عذاب السير والأصوات المزعجة. وجدنا حفرتين مشتعلتين، وينابيعَ ساخنةً في المكان الذي وقفنا فيه، فتهيأتُ للقعود والاستحمام في تلك المياه الساخنة، وكذلك الخادمة ناني التي وضعت قدميها في أحد الينابيع الساخنة. فجلستُ بجوارها، وجلسنا سويًّا نلعب بأقدامنا في المياه الساخنة، ثم وضعت بعد ذلك رأسها على ركبتي، فوضعتُ راحة يدي تحت رأسها لتكون وسادة لها. ثم أخذتُ المرهمَ من الحقيبة لأفركه على ظهرها وبعض أجزاء من جسدها لتخفيف جروحها وكدماتها. وبعد مرور ساعة، ارتدينا ملابسنا وأحذيتنا، ثم انطلقنا معا في طريقنا إلى البيت. أسرعنا في سيرنا حتى نغادر تلك المنطقة

الكئيبة. وبعد مدة وجيزة، لاحظتُ أن مستوى الأرض قد بدأ في الانحدار، فأدركتُ أن هناك سلسلة من التلال التي حجبتْ جزءًا كبيرًا من نهاية ذلك الوادي من المضيق المظلم.

وفجأةً؛ سمعتُ صوتًا عاليًا مزعجًا أتى من خلفي، فما كان مني إلا أن التفتُ بسرعة البرق لأرى ما بخلفي. وجدتُ كائنًا أصفر اللون له أربعة أذرع مخيفة، اثنان منهم يلتفان حول خصر الخادمة، واثنان حول رقبتها لخنقها، لذلك لم تستطع الصراخ. قفزتُ قفزة سريعة على ذلك الكائن المخيف وفي يدي الديسكوس أضرب به وأدافع كذلك. وأثناء قفزي عليه أطلقتُ زئيرًا مثل زئير الكائنات الوحشية، مما جعل ذلك الكائن يخاف للحظة واحدة، فساعدني ذلك في ضرب أذرعه بقوة. كان تحت أذرعه الأربعة شعر كثيف مثل الثور، وما لبث الكائن الوحشي لحظات إلا وقد ظهرتْ أظافره وتحولت إلى مخالب عظيمة في محاولة منه لتمزيق جسدي.

أمسكني من ناحية فخذي، ثم حاول أن يخنقني بأذرعه، لكني قاومتُ بشراسة بالديسكوس وبالدرع الحربي. كان فمه صغيرًا، مما أكد لي أنه لا يأكل ضحاياه؛ بل كان يخنق الضحية من أجل مص دمها، أي أنه من كائنات مصاصي الدماء، وهو نوع مختلف عن الكائنات التي واجهتها أثناء الرحلة بمفردي. كان يستخدم ذراعيه العلويين للخنق، والسفليين للإمساك بالفريسة. كان قتالنا قتالًا ضاريًا، فأفلتُ نفسي من بين أذرعه العلوية والسفلية، وضربته بأشد قوة كإنسان ضد كائن من مصاصي الدماء، ثم تمكَّنتُ من الهرب منه

قبل أن يخنقني ويُنهي حياتي. فبعد أن تمكنتُ منه استطعتُ أن أفصل رأسه عن جسده، وانتهى أمره تمامًا.

أصيب جسدي بجروح بالغة من شدة القتال، فأسرعتُ إلى الخادمة، حيث كانت ملقاة على الأرض ويداها تشير إلى رقبتها التي أصيبتْ بجرح بالغ قد يودي بحياتها. خلعتُ قفازات يدي، وطرحتُ أسلحتي أرضًا مهرولًا إليها، فبدأتُ في إنقاذها من ذلك الجرح العميق برقبتها. فلما رأتني بتلك اللهفة والخوف عليها، أشارتْ إليَّ بيدها حتى أطمئن، فلما وضعتُ أذني على قلبها، وجدتُه ينبض نبضًا طبيعيًّا، فذهب الرَّوْعُ عني. ثم قمتُ بالعلاج اللازم حتى شُفِيَتْ تمامًا وعادتْ إلى الحياة مرة أخرى. ثم حملتُها بين ذراعيَّ حتى لا تقع عينها على ذلك الكائن مصاص الدماء، فأبعدتُها عنه، ثم أنزلتُها وأجلستُها على الأرض لتستريح. بعد ذلك، أخذتُ الديسكوس وقمتُ بتنظيفه.

ربما يسخر مني كثير منكم، لأنني في الحقيقة السيد وهي خادمتي، فهذه الأمور لا سيد فيها ولا عبد؛ الكل سواء، فهي إنسان يشعر ويتألم ويُجرَح ويُشفَى. كانت مطيعة لي أثناء متابعتي لعلاجها؛ لأنها كانت ضعيفة جدًّا، ولا تستطيع المشي إلا قليلًا. كنتُ أحملُها مدة من الزمن تارة، وكنتُ أتابعها في السير تارة أخرى لئلا تقع على الأرض. وأثناء رحلتنا، كنتُ قد أحدقتُ عيني في كل مكان لئلا يخرج علينا أي كائن من قوى الشر. والآن؛ أتينا إلى الجزء العلوي من سلسلة التلال، أووه! ما هذه السعادة التي غمرتني في تلك اللحظة! كانت هناك أضواء كثيرة على فوهة الوادي العلوي، مما أظهروا لنا

أننا قد اقتربنا من المكان فعلًا. فلما أخبرتُ الخادمةَ بذلك، فَرِحَتْ فرحًا عظيمًا، حتى إنها ارتمتْ بين ذراعيَّ كنوع من الشكر والامتنان لي. ثم تقدمنا بقدر المستطاع من السرعة، ثم دخلنا إلى فوهة المضيق العلوي في غضون ساعة من الزمن تقريبًا. كنتُ حذرًا للغاية أثناء دخولنا إليه. وأثناء ذلك، سألتني الخادمةُ عما إذا كنتُ أعرف مكان الهرم الأصغر في خضم هذا الظلام الدامس؛ لأنها كانت بعيدة كل البُعد عنه أثناء هلاك العالم، فأجبتُها وأشرتُ إلى مكانٍ اعتقدتُ فيه أنه هو الهرم الأصغر يقف مختبئًا في ذلك الليل الأبدي. فأومأتْ برأسها وهي في حالة من الهدوء التام؛ لأنها كانت تعتقد كذلك أيضًا.

وهكذا مضى الوقت، وعرفتُ أن ناني قالتْ وداعًا للأبد لكل ما عَرِفَتْه عن ذلك العالم طوال حياتها؛ كانت تهمس بكلماتٍ كأنها قريبة من الموت، مما أصابني بالحزن الشديد عليها. إن الأمر كله ينبغي ألَّا يكون هناك إنسان آخر ينظر إلى أرض الظلام وهو في حالة من الهدوء والسكينة المطلقة، إلا وقد فقدَ أعزَّ شيء لديه. أدركتُ وقتئذٍ أنها فقدتْ كل حياتها على تلك البقعة من العالم، وفقدتْ أباها وأمها، وأصدقاءها كذلك. كانت أرض الظلام عبارة عن موت حقيقي بالنسبة إليها. ارتعش جسدها، وحاولتْ ألا تبكي، إلا أنها أجهشتْ بالبكاء بين ذراعيَّ. كانت ذاكرتها قد استعادتْ ما حدث في تلك المنطقة من آلامٍ وأحزانٍ وأوجاعٍ. كنتُ شديد الرقة في التعامل معها، ومشفقًا عليها ورحيمًا بها، فحملتُها بين ذراعيَّ إلى أسفل المضيق المظلم لمدة ساعة، حتى هدأتْ ونامتْ. وبهذه الطريقة، غادرنا تلك المنطقة المظلمة وتركناها للأبد.

الفصل العاشر

الطريق إلى البيت عبر الشاطئ

خرجنا من ذلك المكان الكئيب الذي كان بداخل سلسلة التلال الضخمة، والذي كان يُطلق عليه المضيق العلوي. كانت ناني تنظر إلى المكان بأكمله من جميع جوانبه باستغراب ودهشة؛ لأنها تخلصتْ أخيرًا من هذا الرعب البشع، ثم استدارتْ الآن، فنظرتْ إلى أعلى ظُلمة الوادي، لكنها لم تخف، ولم تهتزْ قط. لَم تنته دهشتها واستغرابها، لأنها لم تتمتع بتلك اللحظة منذ أمد بعيد. كانت هادئة وآمنة تمامًا، ولم يكن لديها الرغبة في التحدث إليَّ قط؛ لأنها كانت مستمتعة بذلك الهدوء النفسي والعقلي والروحي، لدرجة أنها صاحتْ كالطفل الذي يحاول أن يسمع صدى صوته في مكانٍ فسيحٍ.

أووه! قد كان صدى صوتها قويًّا، لدرجة أننا ظننا أن وحشيًّا سيخرج علينا ليفتك بنا، لكنه كان صوتها هي.

وجب علينا – وقتئذٍ – أن نُسرِعَ في السير إلى أسفل حتى نخرج تمامًا من ذلك المكان الكئيب الذي كنا فيه. غادرناه تمامًا، ثم صعدنا إلى صخرة كانت أعلى من مستوى الأرض، وقعدنا عليها لتناول طعامنا وشرابنا.

رغم ذلك الأمان كله الذي كنا نستمتع به معًا، إلا أننا كنا حذرين جدًّا ألا نقع فريسة سهلة لأي كائن وحشي في تلك المنطقة؛ لأننا لم نعلم ما يسكنها على وجه الدقة. ودائمًا كانت الخادمة تحملق بعينيها فوق هذه المنطقة من العالم، فتتذكر ما حلَّ بها من

ذكريات مؤلمة أحيانًا وغامضة أحيانًا أخرى. أو بمعنى أدق: كانت اللذة والألم يختلطان بها في تلك اللحظة، فيغلب عليها البكاء، فتجهش بالبكاء، إلا أنها لم تكن لترتاح نفسيًّا إلا بين ذراعيَّ، فتهدأ ويروق حالها. وهكذا، كنا نستعيد ذكرياتنا وأحلامنا التي كانت تتعلق بأحداث العالم القديم.

وعلى بُعد أميال، كان هناك شاطئ البحر عن يسارنا، وكان هناك ضباب كثير، ذلك الضباب الذي خرجتُ منه إلى طريقي الخارجي. سألتني ناني عنه، وكان بودي أن أخبرها بقدر ما كنتُ أعرف عنه، وإنما وجب علينا بالفعل أن نسير من خلاله الآن في رحلتنا.

وأثناء الرحلة كانت تتعجب من البراكين التي اشتعلتْ في البحر، وكذلك من عظمة المكان وارتفاعه الشاهق. ثم التفتتْ إليَّ وقبَّلتني ثلاث قبلات فِرنسية بحميمية لم يسبق لها مثيل. ثم تهيأنا سويًّا لممارسة علاقة حميمية، فأوقفتها على الصخرة وفردتُ شعرها على كتفيها، فخلعتُ حذاءها، فظهرتْ قدمها الصغيرة الجميلة، ثم تبادلنا بعض القبلات العاشقة. بدأتُ في مداعبتها رويدًا رويدًا، حتى خطر ببالي لو أنها بين ذراعيَّ لا تفارقني أبدًا، فتظل بجوار قلبي حقيقةً بالمعنى الحرفي لكلمة (بجوار قلبي). أما هي، فكانت قبلاتها الفِرنسية حميمية للغاية؛ لأنها كانت تعشقني عشقًا خاصًّا.

وبعد أن انتهينا من ذلك كله، انطلقنا إلى طريقنا لنستأنف رحلتنا الشاقة. كنتُ أنا في المقدمة، والخادمة ورائي حتى لا يصيبها أي خطر إذا ما واجهنا إياه.

كانت أيامنا وليالينا متشابهة ومتكررة.

في الساعة السادسة مساءً من كل يوم، نتناول الطعام والشراب سويًّا، ونمارس علاقتنا الحميمية سويًّا في بِركة مياه ساخنة، ثم نستأنف رحلتنا الشاقة، وسلاح الديسكوس في يدي لا يفارقني البتة، وهكذا كل يوم.

❁❁❁

الفصل الحادي عشر

على الجزيرة

كنتُ أشعر بالألم والنسيان والحيرة، فجاهدتُ نفسي على أن أقوم من مكاني، لكن أُمْسِكْتُ بقوةٍ لا أعرف مصدرها، فكان لزامًا عليَّ أن أعرف. كان صوتًا قريبًا مني جدًّا، وكان هذا الشيء – مصدر الصوت – يتنفس بجواري، فاستدرتُ برأسي على مهل وبحذر شديدين؛ لأني كنتُ فعلًا لا أقدر على فِعل أي شيء. أووه! إنها الخادمة كانت بالقرب مني، ولم تكن عارية الجسد، بل كانت تتنفس في حالةٍ ما بين اليأس والرجاء. بهذا، تذكرتُ كل شيء، وأدركتُ أنني كنتُ على عوَّامة، وأن الخادمة كانت تدفع العوَّامة والعمود معًا. وبعد ذلك؛ أخرجتُ صوتًا بسيطًا من فمي، لكن الخادمة لم تسمعني؛ لأنها استدارتْ برأسها إلى الوراء لتنظر إلى الشاطئ. كان وجهها مضطربًا وقد بدا عليه علامات القلق؛ لأن هناك أصواتًا بعيدةً أعرفُها أنها أصوات الرجال المستذئبين، ففهمتُ أن الخادمة كان عليها أن تشدني إلى القارب. ففي حقيقة الأمر لا أعرف كيف أنقذتني وقد اقتربَ هؤلاء المستذئبين مني. إن الحبَّ قد منحها قوة عظيمة لإنقاذي من الغرق ومنهم أيضًا. وعقب ذلك، أخبرتني خادمتي أنها عادتْ إلى وعيها. فوضعتُ رأسي على صدرها، فكان رأسي ثقيلًا عليها.

أخذتْ رأسي فوضعتْها على الأرض حتى تتمكن من علاج جروحي، لأني قد نزفتً دمًا كثيرًا. كان قلبها ينبع بالأمل في شفائي، فأخذتْ تطببني وتخفف عني آلامي وجروحي، وفي الوقت نفسه كانت تراقب المكان حتى لا يهجم علينا أي كائن من مخلوقات أرض الظلام. لم يكن هناك شيء باستثناء جثة أحدهم، والآخرون قد

ماتوا من حولنا. ثم هرولتْ سريعًا إلى القارب، وملأتْ خوذتي بماءٍ من النهر، ثم رشَّتْه عليَّ، فلم يكن لدي القدرة على استعادة الوعي وقتئذٍ.

في تلك اللحظة، يجب أن تعرف أن هناك خطرًا قريبًا؛ مما دفعها إلى إنقاذي بسرعة، أو سنموت سويًّا! لقد بذلتْ قصارى جَهدها لإنقاذي، فأخذتني إلى العوَّامة فإلى القارب، ثم ركضتْ بعد ذلك إلى العمود الذي كان بجوار الصخرة. وأثناء ذلك، لاحظتْ أن ثيابَها الممزقة كانتْ في قبضة أحد المستذئبين (من الموتى حولنا)، فأخذتْ الثياب بسرعة، ثم عادتْ إلى العوَّامة لتسبح وأنا معها حتى تصل إلى القارب. كان هناك رجلان فقط من الرجال المستذئبين ما زالوا على قيد الحياة يطاردوننا، فلجأتْ الخادمة إلى الهروب منهما في صمتٍ تام حتى لا ينكشف أمرنا. كان هذا النوع من الكائنات الوحشية لا يعرف السباحة أو العوم، فالماء بالنسبة إليهم نوع من أنواع الموت المحقق. حاولتُ مرارًا وتَكرارًا أن أساعدها في إنقاذنا، لكن يبدو أنني لم أستطع! يا للأسف! إن ما فعلته تلك الخادمة جعل حبها وعشقها في قلبي شيئًا مقدسًا. لم تفكر في نفسها، فاستطاعتْ أن تأخذني إلى الجزيرة لنحتمي بها بعيدًا عن أي شيء قد يتسبب في موتي، وذلك دون أن يرانا المستذئبون. الآن؛ وبعد الإرهاق والتعب والصبر على إنقاذي، ذهبتْ بي إلى مكانٍ آمنٍ على الجزيرة لنستريح ونتناول طعامنا وشربنا.

استيقظتُ من نومي، فشعرتُ بأنني الآن في وعيي الكامل، أشعرُ بما حولي. أما الخادمة فكانت مستلقية على ظهرها نائمةً

مرتاحة البال. فلما استيقظتْ هي الأخرى، نظرتْ إليَّ بنظراتٍ عاشقةٍ، فشربنا شرابنا وتناولنا طعامنا سويًّا، ثم قبَّلتني قُبلة فِرنسية ودموعها تذرف على وجهي من فرط عشقها وخوفها في آنٍ واحدٍ. ثم وجدتُ أن يديها يلتفان حول خصري؛ لأننا كنا ثمالي، ثم خلدنا إلى النوم. وعندما استيقظنا، كنتُ أعرفُ كيف كانت الأمور حولي، وأنني نمتُ عاري الجسد ملفوفًا أنا والخادمة في مِعطفي سويًّا. ثم قامت الخادمة بأخذ ملابسها الممزقة، حيث استطاعتْ أن تحصلَ على خيوط من تلك الثياب، وصنعتْ إبرةً من الأشواك التي ظهرتْ على شجيرات تلك الجزيرة الصغيرة، ثم قامتْ بإصلاح ملابسها.

في اليوم الخامس على الجزيرة، أعطتني الخادمة أقراصًا من الطعام المجفف، حتى استعدتُ قوتي ثانيةً، فكنتُ سعيدًا بذلك. كنا نتحدث سويًّا بحديثٍ لطيفٍ حميمٍ. وفي اليوم السادس، كانت الخادمة هي الأخرى تتمتع بصحة جيدة كذلك، إلا أن النحافة قد أصابتْ جسدها شيئًا قليلًا، مما جعلها تشعر ببعض الضجر وضيق الحال لفترة لم تدم طويلًا. قمتُ بإحضار أقراص الطعام بنفسي، كما فعلتْ معي، وأعدتُ الطعامَ والشرابَ والمَرَقَ، فشربنا وتناولنا الطعام سويًّا. طلبتُ منها أن ترقد على رجليَّ لتستريح. كنتُ في غاية اللطف والدماثة والحِلم في التعامل معها.

استغرقنا في النوم اثنتي عشرة ساعة، ثم قمنا لنشرب من المَرَقِ الساخن الذي قمتُ بعمله للمرة الثانية، وكنتُ أحملُ الديسكوس، ذلك السلاح الفتَّاك الذي كان، وما زال، رفيقي في الرحلة.

تطرقَ حديثنا إلى سؤالٍ سألتُه للخادمة: هل لديك إخوة أو أخوات؟ لم تجبني، وإنما أخذتْ يدي، وأومأتْ برأسها بهدوء شديد، ثم تركتْ يدي وذهبتْ بعيدًا قليلًا عني خشية أن تبكي. في تلك اللحظة، كنتُ في مأزق وموقف محرج للغاية، فلم أستطع فِعل شيء غير أني ناديتُها على استحياء. عادتْ إليَّ وعلى وجهها البسمة والمحبة، ثم قامتْ بإعداد الطعام لنا. ظللنا هكذا كل يوم، حتى أصبحتُ في كامل قوتي، فمضينا قُدُمًا في رحلتنا. وأثناء السير، طلبتْ مني أن تقضي حاجتها، فأذنتُ لها، وطلبتُ منها ألَّا تتأخر. وبعدما انتهتْ من قضاء حاجتها في بِركة خلف شجيرات الجزيرة، أسرعتْ إليَّ ولم تكن قد انتهتْ من ارتداء ملابسها كاملةً؛ لأنها كانتْ تعلم أنني حتى في شوق لها وهي تقضي حاجتها في الخلاء! كان شعرها مفرودًا على كتفيها فَردًا مثيرًا جميلًا يَسُرُّ العين. ثم أتتْ إليَّ، وقد وبّختُها قليلًا لأنها لم تهتم بقدميها الصغيرتين الناعمتَين. فكانتْ تداعبني بطريقة طفولية جدًّا! كانتْ ترفع قدميها الصغيرتَين أمام وجهي ظنًّا منها أنني سوف أُقَبِّلهما. فلما أردتُ أن أنهي هذه المداعبة الطفولية، قمتُ بمداعبتها كذلك بطريقتي الخاصة؛ إذ ربطتُ شعرها الطويل في قدميها، وبالتالي كنا نضحكُ بصوت عالٍ لما فعلتُه بها. ثم بعد ذلك فككتُ شعرها من قدميها. وفي تلك اللحظة الحميمية، قصَّتْ خصلة من شعري وخصلة من شعرها، ثم قامتْ بتضفيرهما معًا حتى صارتا ضفيرة واحدة، ثم حضنتها. ثم أعطتها لي لأُقَبلها، ثم قَبَّلتها هي الأخرى.

❁❁❁

وعقب تلك المداعبات الحميمية، أخبرتُها حكاية ذلك الشاب الذي عاش، ذات مرة، في الأيام الخوالي، ثم التقى بخادمة على أرض الظلام، وكيف أنهم أحب بعضهما البعض؛ بل عشق كل طرف الآخر، ثم تزوجا، ثم ماتتْ الخادمة. فتسلل الحزن والجنون اللانهائي إلى عقل الشاب وروحه وقلبه حتى أوشك على الموت هو الآخر من فرط حزنه عليها. وأخبرتُها كيف استيقظ ذلك الشاب فجأةً ليرى مستقبل العالم في توقيت جديد، ثم أدركَ أن حبيبته على قيد الحياة هي الأخرى بعد موتها في الماضي. أخبرتُها كذلك كيف عثرَ عليها، وكيف كانتْ آية في الجمال، فكان يُبجّلُها ويحترمها لدرجة التقديس؛ تلك التي كانت زوجته في الزمن الماضي، فصار هذا التقديسُ ألمًا مستمرًا وكربًا على قلبه وروحه وعقله. لم أتعمق أكثر من ذلك في التفاصيل الدقيقة؛ لأنني تأثَّرتُ بالكلام عن نفسي مع الخادمة، فأجهشتُ بالبكاء، فوضعتْ الخادمةُ يدها الرقيقة على شفتيَّ.

أووه! انحنتْ الخادمةُ لي فجأةً، وأخذتني بين ذراعيها تحضنني، فهدأتْ من روعي، فهدأتُ في ذراعيها. كانتْ تداعبني، وعندما اطمأنتْ أني بخير، قامتْ لإعداد الطعام والشراب، وقضينا يومًا ممتعًا. وأثناء تناول الطعام، تبادلنا النكات. لكنها فاجأتني حين قالتْ: إنني على معرفة بالمستقبل وهي في الزمن الماضي، فكان ذلك غريبًا بعض الشيء.

أما الآن، في الزمن الحاضر، أخبرتُ الخادمةَ أشياءً كثيرة جدًّا تتعلق بالهرم الأكبر، وأن الذي قلتُه سابقًا كان غيضًا من فيضٍ، إلا

أن الحظ لم يسعفنا، فلم يكن لدينا فرصة كبيرة لاستعادة هذه الأيام الماضية. لم تكن هي راغبة في التحدث إليَّ عن تلك الأشياء؛ لأنها أرادتْ أن تستمتع بكل لحظة معي في سكينة وهدوء تام. ومن بين تلك الأشياء الماضية المحببة إليها أن الحياة والإنسانية ما زالتا تسكنان في ذاكرتها.

إن الحبَّ في عُرف الملايين من الناس كان يُحْتَسَبْ بالنوايا الطيبة؛ فالنية محلها القلب، ولم يكن هذا المعنى يتجاوز هذه المرحلة. أما حقيقة الحب فهي أن ترتبط بشخصٍ ما بقوة، ويسكن الفرحُ فيك أولًا ثم في مَن حولك، ثم تصير روحك مع روح الحبيب روحًا واحدًا في جسدين مختلفين، فيسري في جسدكما سِرٌ من أسرار السلام فيصل بكما إلى مرحلة القداسة. إن هذا هو المعني الحقيقي للحب البشري، وكل ما سوى ذلك فلا يكون حُبًّا حقيقيًّا، بل من المحتمل أن يكون جانبًا منه، أو بعضًا منه، أو اسمًا مجردًا من غير دلالة واضحة. لكن الشيء الذي أملكه في قلبي هو قوة الحب بمعانيها الراقية الرفيعة – والتي أشرتُ إليها في قصتي هذه – لأني في الحقيقة قد عرفتُ معنى المحبة، وأدركتُ أنني سأموت لا محالة إذا انفصلتُ عن حبيبتي أو غابت عني أو ماتت.

ففي الوقت الحاضر، أتتْ إليَّ خادمتي تبكي، مما جعل ذاكرتها تسترجع ما حدث لها في طرقات الهرم الأصغر. فتوقفتُ عن إخباري إياها بأي شيء يتعلق بذلك الموضوع؛ لأن ألم الذكريات قد أَلَمَّ بها، فطلبتْ مني أن نمضي في رحلتنا دون التطرق إلى أي شيء يتعلق بما مضى، حتى لا يتسلل الحزن والغم والنكد إلى حديثنا.

وبعد ذلك، تطرقنا في الحديث عن الحقول التي أُنْشِئَتْ تحت الهرم الأكبر، وكيف أنها حُفِرَتْ على مدى سنوات طويلة بأيدي ملايين من البشر. ثم قلتُ لخادمتي: إنه كان هناك قرى جميلة موجودة في ذلك الهرم الأكبر، وقد عاش فيه هؤلاء الملايين من الناس هناك، وعملوا باستمرار في تلك الأراضي والقرى الجميلة، واجتهدوا في عملهم من غير تهاون أو تكاسل. كما أخبرتُها كذلك عن الحقل الأدنى الذي كان في بلد الصمت، وكان مركزًا لحفظ سجلات ملايين من العظماء، حيث بَقِيتْ بعيدًا عن التحريفات أو السرقة.

أعطتني قُبلة على جبهتي بصمت، ثم استدارتْ بوجهها عني كأني تفكر في شيء ما، ثم عادتْ لتنظر إليَّ بكل الحب والاحترام والتقدير. وفي الوقت الحاضر، جلستْ بجواري، ووضعتْ يدها على يدي حتى ترى على وجهي علامة الفرح والسعادة النفسية التي دائمًا تحب أن تراها مني.

ثم عدتُ مرة أخرى إلى الحديث عن تلك الأيام الخوالي وعن تاريخ العالم القديم. تحدثتُ في كل شيء بأدق تفاصيله. اكتشفتُ أن خادمتي لم يكن لديها معرفة بالطريقة التي كان عليها العالم في زمن المستقبل، ولم تعرف أنه يوجد فوق الأرض، التي تم دفننا فيها، قوة أبدية، وعالم آخر أُبِيدَ عن بَكرة أبيه، أما الآن، فالظلام والصمت يسودان الكون. أما في سالف الزمان، كان الحب سرًّا من أسرار الروح؛ حيث كان الحبيب قريبًا من محبوبه، أما الآن فلا شيء سوى رائحة الموت، والظلام، وهلاك الكون، والدمار.

سألتُها عن بعض الأشياء التي لم تسعفني الذاكرة عن استرجاعها، لكنها لم تتذكرني، ولا تتذكر أي رجل آخر في ذلك الوقت؛ لم يكن لديها قوة حفظ لتلك الذكريات، باستثناء تلك الأشياء المجردة الغريبة التي تحدثتْ عنها آنفًا. من المؤكد أن أسئلتي جلبتْ لها الأسى والكآبة والغم، لأنها كانت منزعجة حقًّا، وكانت تعاني أشد المعاناة من تلك الأيام السابقة لِمَا حدث لها. رغم ذلك كله كانت سعيدة للغاية لأننا اجتمعنا مرة أخرى في نهاية العالم.

والآن – في الزمن الحاضر – قامت الخادمة بتهيئة مكان النوم، ثم استلقيت بالقرب مني ووجهها الناعم على صدري، ثم خلدنا إلى النوم سويًّا. وعندما استيقظتُ، سمعتُ هدير الماء، فعلمتُ أنها قد استيقظتْ منذ فترة وجيزة، ثم قضتْ حاجتها، ثم ذهبتْ إلى بِركة دافئة للاستحمام هناك بين الأدغال على الجزيرة. فوقفتُ أنظرُ إليها صبابةً. ثم أشارتْ بيدها الرقيقة لي حتى أخلع ملابسي من أجل استحمام حميمي يجمعنا، فذهبتُ إليها وقلبي يرقص من الفرح طربًا، حيث كنا كالجسد الواحد. كانت تعتني بجسدي فتقوم بغُسلي بنفسها كطفلها الرضيع. ثم بعد ذلك، انطلقنا لنتناول الطعام والشراب سويًّا. وبعد أن انتهينا من تناول الطعام والشراب، جلستْ الخادمة بجواري في جِلسة شديدة الرومانسية.

وفي اليوم العاشر، أعددنا أنفسنا للرحيل من الجزيرة، فأحضرتْ لي الخادمة درعي لكي أنظفه جيدًا؛ لأنه في الحقيقة كان

شديد الاتساخ، وكان قد انثنى قليلًا إلى الداخل بسبب القتال الشرس الذي دار بيني وبين المستذئبين. فأصلحتُ الدرعَ، وجهزتُ أسلحتي وأمتعتي، وهي كذلك. وقبيل الرحيل، كنا نتحدثُ عن أفضل طريقة لرحلتنا، فاتفقنا أن نرحلَ باكرين خشية أن نواجه خطرًا ما. ثم أنا والخادمة كنا نفكر في شيء واحد في آن واحد، ألا وهو أنه يجب علينا أن نتخلص تمامًا من مطاردة أي كائن من تلك الكائنات التي ربما تكون تراقبنا ولا نعلم! تذكرنا أنه لدينا عوَّامة وقارب، ثم أخذتُ سلاح الديسكوس، ثم اتجهنا إلى الجزيرة حتى نَقُصَّ عددًا من فروع الأشجار القوية والمتينة لنصنع منها أعمدة للسير بها والاتكاء عليها وسط الأدغال حتى نصل إلى الهرم الأكبر.

وفي اليوم الثالث عشر، اكتشفتُ أننا لا نمتلك ما يكفينا من الأعمدة. فعزمتُ على ألَّا أتناول طعامًا أو شرابًا حتى أنتهي تمامًا من ذلك الأمر. وبالفعل؛ ذهبتُ أنا والخادمة إلى أشجار الجزيرة مرة أخرى، وأخذنا في قص الفروع القوية والمتينة لصنع أعمدة أخرى كافية في يومنا الرابع عشر على الجزيرة. وكانت الخادمة بجواري تعمل على تجميع تلك الفروع حتى جعلتها رُزْمَةً واحدةً، فصنعتْ مِجدافًا تلو الآخر بهذه الطريقة. وفي غضون ست ساعات من يومنا الخامس عشر على الجزيرة، بدأنا في دحرجة تلك المجاديف إلى الشاطئ. وفي الغد، الذي يصادف اليوم السادس عشر على الجزيرة، انتهيتُ من وضع تلك المجاديف بجوار العوَّامة لنكون جاهزَين للعوم والتجديف.

❖❖❖

الفصل الثاني عشر

بيت الصمت في سالف الزمان

الساعة الآن العاشرة صباحًا من ذلك اليوم، بدأنا في التجديف والعوم، وكانت الأعمدة التي صنعناها سهلة الاستخدام. تلك الطريقة كانت أيسر وأسرع من السير على الطريق الوعرة بين الأشجار. وفي الساعة الثانية عشرة ظهرًا، توقفنا عن العوم والتجديف من أجل تناول الطعام والشراب كعادتنا، ثم تبادلنا الحديث وبعض القُبلات الحميمية. ثم أعددنا عُدة النوم، فوضعتْ الخادمة المِعطف على الأرض لتكون كالسرير، ثم خلدنا إلى النوم. كانت رحلتنا ممتعة وشيقة التي امتدتْ بين البحر والشاطئ أربعة أيام، ولم يحدث شيء مريب أو مخيف، غير أن وحشًا من وحوش تلك الأرض كان بعيدًا عنًّا لم يمثل خطرًا علينا قط؛ لأننا وصلنا إلى مكانٍ آمنٍ تمامًا.

الآن؛ كان هناك شيء آخر لاحظناه إلى جانب الوحش الذي رأيناه. كانت هناك حفرة نار عظيمة تقع في البحر، ونحن نقترب منها. من المؤكد أن البحر كان يغلي من حوله، وكان هناك عدد من ألسنة اللهب تصعد إلى أعلى، حيث سمعنا أزيز النار. في ذلك الوقت، اكتشفنا أن ذلك المكان الذي وصلنا إليه كان مفترقًا لعدة بحيرات، فكان مكانًا ممتازًا حيث نستطيع أن نرى المكان بأكمله فلا نضل الطريق. فوضعنا أمتعتنا وأسلحتنا – وما زال الديسكوس في يدي –، وكان في يد الخادمة سكين.

كان هناك جبل عالٍ، صعدنا إلى أعلاه، ومن خلاله انطلقنا إلى الأمام، ثم إلى الظلام، حيث كانت هناك مساحة صغيرة، فوصلنا إلى مكانٍ فيه وادٍ مُنحَدِر بشدة إلى اليسار. توقفنا هنا وعدنا مرة

أخرى إلى مفترق البحيرات حتى نلقي نظرة أخيرة على تلك الأرض العميقة، والتي جَنَّ عليها الليل الأبدي. إن الأمر كان جادًّا أن نعرف وندرك الحقيقة، وهي أننا آخر البشر القدامى الذين يلقون نظرة على هذا العالم بعد هلاكه وفنائه. ثم انطلقا لمدة ست عشرة ساعة في الظلام القاتم الذي كان مصدرًا للإزعاج أثناء الرحلة. وبالفعل، وصلنا إلى مكانٍ آمنٍ من أجل النوم.

وبينما نأكل ونشرب، قمتُ أنا والخادمة بالنظر خارجًا حتى لا يأتي إلينا وحشي من الوحوش يهدد أمننا وسلامتنا، فقررنا ألَّا نسير أكثر من ست عشرة ساعة عبر ذلك الوادي الذي نزلنا فيه، وألَّا يزيد وقت النوم عن ثماني ساعات وحسب. ثم عرضتْ الخادمة عليَّ سؤالًا: ما المدة التي سنقضيها على أرض الظلام؟ ومتى سنعود إلى الهرم الأكبر؟ كانت الخادمة فقدتْ الأمل في تلك المنطقة التي بلا حياة، ولم يكن عليها سوى الغاز المحترق، والصخور الصلبة، وحرائق، وألسنة اللهب، والهدوء اللانهائي. كان إحساسها بالوحدة إحساسًا قاتلًا كما أحسستُ بذلك على تلك المنطقة المقفرة.

وفي حوالي الساعة السابعة، سمعنا أصواتًا غريبةً في ذلك المكان، حيث كانت الصخور في حد ذاتها تصدر أصواتًا لم أسمعها من قبل. كانت الخادمة بجانبي، وسلاح الديسكوس في يدي لا يفارقني، ثم واصلنا السير على حذر شديد. ثم مررنا بثلاثة أماكن اشتعلتْ فيها حرائق الغاز. بعد كل وقت وآخر، كنا نسمع أصواتًا عاليةً، كما لو أن تلك الأصوات تقترب، لكنها في حقيقة الأمر كانت بعيدة.

كان علينا أن نتجاوز حرائق الغاز، وأن نكون في ذلك الجزء من المضيق الذي لا يوجد به أي نوع من أنواع الحرائق وألسنة اللهب. كان يوجد نافورة من الغاز تتمايل في الهواء، مما جعل الضوء يذهب يمينًا ويسارًا أعلى ذلك المضيق. وهكذا؛ أصبحنا قريبين جدًّا من تمايل الغاز وألسنة اللهب، فلما وصلنا إليهما، أصبحتُ أنا والخادمة مثل اثنين غريبَين في تلك الفوهة من ذلك المضيق المقفر. ثم بعد ذلك أطلنا النظر إلى أحد ألسنة اللهب، فإذ به يتحول إلى اللون الأزرق وينتشر في كل مكان وعلى مسافات بعيدة. قد كنا في حالة من الارتباك لما نراه. وقبل وصولنا إلى أرض الظلام، كان علينا أن ننظر في الطريقة التي نسير بها خلال رحلتنا.

وصلنا إلى مكانٍ آمنٍ، ووضعنا أمتعتنا استعدادًا للاستراحة والنوم. تناولنا الطعام والشراب كعادتنا، ثم خلدنا إلى النوم. وعندما استيقظنا، وأثناء تناولنا لطعامنا وشرابنا، حدث شيء ما، فنظرنا في ألسنة اللهب التي كانت تبعد عنّا، فوجدنا أن الصخور العالية مع تساقط الضوء عليها كانتْ تشبه العمالقة. انطلقنا في رحلتنا باتجاه المنحدر الكبير في الظلام الأبدي، ثم بدأنا في التسلق ثمانية أيام. كان التسلق على أيدينا وركبنا، وكانت الخادمة تزحف بالقرب مني. ثم أخذتها بين ذراعيَّ حتى نستريح سويًّا من عناء التسلق والزحف. كما كان من دواعي ارتياحي وسروري أننا نصعد إلى أعلى ولا نهبط إلى أسفل؛ لأنني لم أكن أحب الهبوط من أي منحدر في الليل، وكان ذلك بعد أن اكتسبتُ خبرةً من رحلتي السابقة في البحث عن الخادمة.

في تلك الأيام الثمانية؛ كانت الأجواء مليئة بالضجر وعدم الارتياح الكلي؛ لأننا كنا نخشى أن نرفع أصواتنا بالمُزَاح الذي كنا نقوله خشية إصابتنا بأي مكروه من أي كائن وحشي. علاوة على أن الحجر والصخور كانت تصدر أصواتًا غريبة في الليل، فكان ذلك الصوت مصدرًا من مصادر المتاعب والكآبة، مما جعلنا نحافظ على هدوئنا في تلك البقعة من العالم. كان الصعود يُشْعِرُنا بالارتياح نسبيًّا عن النوم في المكان الذي اتخذناه مكانًا للنوم.

في بعض الأوقات كان يبدو لي أننا كنا روحَين هناك في ظلام أبدي، كان أحد الروحَين يتحدث إلى الأخرى. يبدو من ذلك أن أرواحنا خرجت من أجسادنا، وبالتالي كنا نحتاج إلى أن ينظر كل واحد إلى الآخر حتى نعرف حقًّا أننا على قيد الحياة أم لا. وفي وقت معين، نادتني باسم الحب الذي كانت تناديني به في تلك الأيام الخوالي من هذا الزمن، والذي لم أسمعه منذ وفاة ميرداث!

وهكذا ذهبنا، وحتى في تلك الليلة العجيبة لنجتمع معًا إلى الأبد؛ حتى تكون أرواحنا بالتأكيد قريبة، بطريقة ما وهذا هو ذلك الشيء الجميل والمقدس الذي أطلقتُ عليه وصف الحب، ويكون من حظي الحسن أن الحب قد أتى إلي بهذا الوصف والمفهوم.

واستأنفنا الصعود إلى أعلى خلال الظلام، وكان اللمعان الخافت ينمو حتى نرى طريقنا قريبًا وسهلًا جدًّا، كضوء يلوح في الأفق من بعيد إلى الأعلى. ونحن دائما نتسلق ونمضي قدما. أووه! في الساعة الرابعة عشرة من ذلك اليوم، صعدنا ببطء على المنحدر ووقفنا عند نهاية ذلك الطريق الغريب حيث تسير الكائنات

الصامتة. وبالتأكيد كان الأمر كما لو أنني عدتُ إلى المنزل، ووضعت قدمي مرة أخرى على المناطق المألوفة بالنسبة لي، وهذا لأحدد لكم المسافة التي قطعتها على ما يبدو، والآن أعود مرة أخرى إلى مكان معروف. وصعدنا على الطريق، حتى وصلنا بالفعل إلى قمة المنحدر، وأخيرًا بحثنا عن كل غموض تلك الأرض وعجائبها.

أطلتُ النظرَ في مكان بعيد وسط أرض الظلام، حيث كان الهرم الأكبر وكان منزلي هناك! يا لتلك الفرحة التي غمرتني وقتئذ، فسرعان ما وضعتُ ذراعيَّ حول الخادمة لتنظر معي إلى المكان الذي كان ملاذًا لنا طول حياتنا. نظرتْ الخادمةُ بفرحة عارمة قد تكاد لا تُصَدَّق. ظلَّتْ تنظر وتطيل النظرَ من هول المفاجأة والسعادة وقد مُزِجَا بالدهشة مزجًا عجيبًا، ثم أدارتْ وجهها إليَّ، ودمعتْ عينها من شدة السرور. كانت مثل الطفلة تمامًا في فرحها وحزنها على السواء. بيت الصمت كان هو بيت الرعب الذي كانت مرعوبة منه أثناء الاختباء في الأدغال خوفًا ورعبًا من الكائنات القوطية والمستذئبين ومصاصي الدماء.

كان بيت الصمت على تلة منخفضة، ولم يكن بعيدًا عنا. إن وصولنا إليه يحتاج بعض الوقت؛ لأننا – كما تعلمون – لم يعد في مقدورنا الإسراع في السير بسبب الزحف والتسلق اللذين طالتْ مدتهما. ثم بحثنا من حولنا، فسرعان ما وجدنا صخرة ضخمة مناسبة وآمنة للاختباء والنوم فيها حتى نستأنف – فيما بعد – طريقنا إلى الهرم الأكبر وإلى منزلي. قمنا بتنظيف المكان وإعداده للاستراحة والنوم كعادتنا، ثم تناولنا الطعام والشراب، ثم خلدنا إلى

النوم. كان الديسكوس دائمًا معي لا يفارقني لحظة واحدة. كان عليَّ أن أخلع معطفي وأُلْبِسْه إياها – أي الخادمة – بسبب برودة الأرض التي كنا ننام عليها. رفضتْ ثانيةً كما فعلت ذلك سابقًا، حتى اتفقنا أن نلتفَّ فيه سويًّا كما في السابق.

وعندما استيقظنا، قمنا بتجهيز معداتنا وأمتعتنا وأسلحتنا، وأعيننا تنظر إلى النور تجاه الهرم الأكبر، وأنا لم أتوقف عن إخبار نفسي وخادمتي أن هذا الشيء يتعلق بالحصن العظيم- أي الهرم- حيث السعادة قد بلغتْ منا مبلغها. وكما تعلمون أن بيت الصمت على تل منخفض، والطريق منحدر حوله من الأسفل. وقفتُ أفكر في طريق سهل وآمن نسلكه بعيدًا عن المخاطر، وإذا نجحنا في الوصول إليه، سنصل في فترة وجيزة للغاية. خرجنا من بين الأدغال على جهة الشمال الغربي ثم إلى جهة الشرق، وهناك الشجيرات بكَثرة؛ لأن تلك الشجيرات تمثل غطاءً لنا، ومن الصعب جدًّا أن ينال منا أي كائن وحشي. ثم انطلقنا لمدة ست ساعات، وبعض الأوقات كنا نزحف، وكثيرًا ما ننحني ونسير ببطء على حذر شديد.

وفي تمام الساعة العاشرة، وصلنا تقريبًا إلى البيت. يجب أن نبتعد عن الطريق الذي يسير فيه الكائنات الصامتة، ونذهب مباشرةً في طريق مستقيم. علاوة على ذلك أن كائنًا صعد أحد أبراج الصمت إلى الأعلى في الليل الأبدي، والذي كان موجودًا في هذا الجزء من الأرض، وكان يُعتَقَد أن به حَرَسين غريبين، وكان البرج يقف على مسافة كبيرة بعيدًا وسط الصخور. وعلينا أن نتذكر دائمًا أن هذا البرج هو الملاذ الوحيد لنا من أي خطر. إنه بالفعل بيت الصمت.

❖❖❖

التفتُّ إلى الخادمة، إلا أنه في لحظةٍ مُفَاجِئَةٍ بدأتْ في نحيب بصوتٍ منخفضٍ ووقعت على الأرض. يبدو أن قلبي يموت بداخلي؛ لأنني علمتُ أنه قد تم توجيه قوة من بيت الصمت، والتي كانت موجهة إلى روح خادمتي. فأمسكتُ بالخادمة بين ذراعيَّ، ووضعتُ جسدي على جسدها! قد كانت القوة التي خرجت من بيت الصمت قوية لقتل الخادمة، وليس لقتلي. حملتُها على ذراعيَّ كطفلتي! وقفتُ بمفردي، ولم يعد هناك فائدة للاختباء، وعلمتُ أنه يجب أن أسير بمفردي إلى الأبد إلى أن أموت. فأخذتُ الديسكوس ووضعته بين ذراعيَّ بجانب الخادمة، وتقدمتُ بسرعة في الأدغال سريعًا، فأدركتْ روحي تلك القوة الوحشية التي أتتْ لتقتل خادمتي بهذه الطريقة.

وبينما كنتُ أسير، كنتُ أنادي على نفسي باسم الحب القديم تارة، وباسم ناني الجديد تارة أخرى، لكنها لم تتحرك قط. قد أصاب قلبي حزن لم يبلغ له مثيل. كانتْ إرادتي على إحيائها مرة أخرى إرادة عالية في أن أذهب بها إلى بيت الصمت أو الهرم الأكبر لكي تعيش. فتوقفتُ عن السير، وقمتُ بعمل مَرَق ساخن، وحاولتُ جاهدًا أن أضع بعض المَرَق بين الشفتين المغلقتين للخادمة. كنتُ أحاول إحياءها، وكنتُ أحاول ألا أجزع أو يسيطر عليَّ الحزن وأتمالك نفسي لإنقاذها. لكن يبدو أنه لا فائدة مما أفعل! ثم أجبرتُ نفسي على تناول الطعام والشراب، وشربتُ كثيرًا من الماء؛ لأن الحُمَّى كانت تسري بجسدي. كنتُ أسير فترة، وأتوقفُ فترة أخرى لأتناول الطعام والشراب حتى لا تضعف قواي وتنهار.

انطلقتُ بسرعة كبيرة، ولم أختبئ في الأدغال أو التهرب من أي شيء، ولم أذهب يمينًا ولا يسارًا؛ لأنني علمتُ أن الخادمة ماتت ببطء بين ذراعيَّ. كنتُ أُسْرِعُ في السير ولدي أمل أن أصل إلى الهرم الأكبر، فيستطيع الأطباء علاجها. وفجأة أدركتْ روحي أن الأثير من العالم قد تحركَ، وبالفعل، شاهدتُ الملايين من الهرم الأكبر قد رأوني من خلال المِنظار أن الخادمة على ذراعيَّ أجري بها. وكما علمتُ أن المونستروااكان كان يراقبني أيضًا من براج الحراسة، فأصدر أمرًا إلى الناس ألَّا يتكلموا أو يصيحوا أو يتفوهوا بشيء يثير غضب قوى الشر خارج الهرم الأكبر، فتتوجه تجاهي لإيذائي. كان المونستروااكان قد عَلِمَ أن قوة ما قد خرجت من بيت الصمت، وهذا ما أزعجه كثيرًا.

ومع ذلك كانت أوامر المونستروااكان بالصمت بلا فائدة؛ لأن الناس تفاعلتْ مع ذلك الحدث الفريد من نوعه، فكيف تُخفي تفاعلها مع رجل في هذا الزمن خرج مخاطرًا بنفسه وروحه ويُصارع الموت بحثًا عن حبيبته، ومن ثم يعود حيًّا هو وحبيبته! أما بالنسبة لي، فقد تقدمتُ باتجاه الهرم الأكبر، ولم أتوخَّ الحذر فقد كنتُ في حالة ما بين الجنون واليأس الذي ازداد بداخلي كلما أدرك أن خادمتي ماتت بين ذراعيَّ، ولم أعد أستطيع فِعل أي شيء.

وأثناء مروري عبر الطريق، شاهدتني أعداد كبيرة من شعب الهرم الأكبر، وحدث اهتزاز في الأثير في العالم، بسبب الانفعال والتفاعل المفاجئ من الناس. كان الأمر كذلك في تلك اللحظة التي استيقظتْ فيها الأرض بعد فترات طويلة جدًّا؛ لأنني سمعتُ ضحكة بعيدة ومخيفة أتتْ من بعيد إلى جهة الشرق، وكأنها ضحكة لكائن من الكائنات الوحشية في أرض فضاء لا أحد فيها. توقفتُ قليلًا،

فأخذتُ السكين من حزام الخادمة الذي كان مربوطًا على خصرها، وقمتُ كذلك باستحضار الشريحة لاستخدامها في الوقت المناسب. فبدأتْ الوحوش تتحرك وتتجول في البرية، أما أنا فكنتُ أتوجه إلى بيتي مباشرةً لا يمينًا ولا يسارًا. وأثناء ذلك؛ خرج شيء من الأدغال من جهة اليسار، وكان طويلًا جدًّا، وأتى إليَّ. اشتعل الغضبُ بداخلي أكثر مما كنتُ عليه، فقفزتُ عليه قفزة واحدة بالديسكوس فقتلته. ثم استكملتُ السير، وكنتُ في حالة ممزوجة بالغضب تارة، واليأس تارة أخرى. وبعد قليل، مرَّ بي رجل ضخم، كان يركض بسرعة لدرجة أنه كان يرتجف، لكنه لم يرني قط.

ومن المؤكد أن وَحدة حب الملايين من الناس لي صنعتْ بداخلي قوة خارقة، فكان جُلّ همي أن أُسْرِعَ للوصول إلى الهرم الأكبر، وإلى الأطباء تحديدًا. أووه! لقد كان هناك أصوات شرسة لكلاب الصيد الضخمة، حينئذ أدركتُ أننا في عتاد الموتى لا محالة، إلَّا أن تحدث معجزة تنقذنا! ثم سألتُ نفسي سؤالًا: لماذا لا أحد يطلق النار من الهرم الأكبر على تلك الكائنات لمساعدتي؟! أما المونسترواكان فقد أدركت يقينًا أن الصمتَ لا يجدي نفعًا بعد الآن، فأرسل إشارةً لي تفيد بأن أحافظ على قوتي وشجاعتي المتبقية؛ لأنه قد جهَّزَ ثلاثة من المسلحين لإنقاذي. اقترب نباح كلاب الصيد مني، فبدأ الشعور بالوحدة والخوف يدبان في قلبي طوال الليل. وأثناء هذه الأحداث المتعاقبة، علمتُ أنهم قاموا ببعض الاستعدادات الرائعة في الهرم للدفاع عنا. لأن الليل كله بدأ الآن يرتجف مع الضربات القوية للتيار الأرضي.

❁❁❁

الفصل الثالث عشر

في بلد الصمت

لقد أصبحتُ قريبًا من الهرم الأكبر! حافظتُ على سرعتي باتجاهه، وعندما مررتُ بمكانٍ فارغٍ وجدتُ حفرةً من النار تشتعل، ثم خرج من قاعها شيء ما. كان ذلك الشيء رجلًا ضخمًا، فنظر إليَّ، وبعد ذلك أتى إليَّ، ومدَّ يده إلى الأمام. وما كدت أن أرى يده في الظلام بسبب ضوء بسيط من تلك الحفرة. كانت تلك اليد ضخمة ومتسخة وبها مخالب قبيحة؛ يبدو أنه وحشي آخر! طرحتُ نفسي أرضًا؛ لأني لم أكن أهتم بالحياة قط، بل كنتُ شرسًا مع اليأس الذي ما زال يطاردني حتى تلك اللحظة. قفزتُ قفزةً مليئة بالغضب واليأس معًا على ذلك العملاق، فضربتُه، إلَّا أنه نجا من الضربة. ابتعدَ قليلًا عني، ثم هجم عليَّ بذراعه القبيحة، وأمسك برأسي كأنه أراد أن يكسر عنقي، ثم ألقى بي على الأرض. أُصِبتُ ببعض الكدمات، ثم قمتُ من مكاني وأمسكتُ بالديسكوس؛ فإذ بالديسكوس يزأر كالأسد في وجه ذلك العملاق القبيح حتى قضى عليه.

مضيتُ قُدُمًا في طريقي، وبعد ميل واحد، ظهر شيئان غامضان في الظلام، ثم قاما بالهجوم عليَّ، ففعلتُ فيهما ما فعلتُه بالسابقين. يبدو أنني سأقتل تلك الكائنات إلى الأبد! كان اليأس يحيط بي من كل جانب، فمن المؤكد – كما أظن – أن نهاية حياتنا قد حانتْ، ولن أستطيع إنقاذ خادمتي. كانتْ المنطقة بأكملها تصيح، فأسمعُ أصواتًا عاليةً منفِّرَة، وأخرى منخفضة، وأزيز النار،

إلخ، كأن الوحوش قد اجتمعتْ لإلحاق الأذى بي أو بهلاكي وهلاك الخادمة.

أووه! كان الأمر لو أن جميع ما في تلك الأرض قد استيقظ ونهض، كان مجرد نوم، إلى جانب اليقظة التي أتتْ الآن. ظهرتْ أضواء وظلال غريبة من الأرض، ونباح كلاب الصيد الضخمة تقترب أكثر فأكثر، لذلك؛ كنتُ أعلمُ أن الموت قريب جدًّا بالنسبة لي وبالنسبة للخادمة التي في اللحظات الأخيرة من حياتها.

لم أتوقف عن السير تارة وعن الجري تارة أخرى؛ لأن الهرم الأكبر لم يكن بعيدًا عني. ومع اقتراب نباح الكلاب مني، إذ بجبل شاهق ظهر أمامي ليحجب عني رؤية البيت. صرختُ صرخةً يائسةً كأني أقول: يأس إلى ما لا نهاية، وظلام بلا نهاية، فلماذا لا أحد يساعدني؟! كنتُ أشعر بالتعاطف الشعبي من أهل الهرم الأكبر باتجاهي. اهتزتْ الأرض من حولي من شدة نباح الكلاب التي وقفتْ أمامي. وقع في قلبي – حينئذٍ – أننا في أقل من دقيقة واحدة سنكون في عتاد الموتى، ولا فائدة من الجري. نظرتُ نظرةَ يأس إلى الهرم، ثم نظرة أخرى إلى كلاب الصيد الضخمة، لكن كانت المفاجأة! شاهدتُ شعلة كبيرة جدًّا آتية من اتجاه الهرم صُوِّبَتْ باتجاه كلاب الصيد، ففهمتُ أن شعب الهرم الأكبر قد أطلق التيار الأرضي على الكلاب لإنقاذي. نزلتْ تلك الشعلة الكبيرة على الأرض، فانشقتْ

وأحدثتْ أخاديد[1] عديدة، وكان هناك رعد عظيم استمر لفترة ليست بالقليلة؛ لأن قوة الأرض تتمزق بشدة، والصخور انهارتْ وتساقطتْ وتفتتْ. في تلك الأحداث، لم أسمع صوتًا لكلاب الصيد الضخمة، ولم أسمع أي شيء آخر؛ فالكل قد هلك وانتهى أمره.

في كثير من الأوقات، كنتُ أركضُ سريعًا حيث نظري كان صوب الهرم الأكبر وحسب. كانت قوة التيار منخفضة، فسيكون ذلك خطر على جميع البشر الذين عاشوا بالفعل، وحتى بالنسبة لجميع الملايين في الهرم الأكبر. كنتُ أنظرُ إلى أعلى برج المراقبة، فربما أستقبلُ إشارة أو تحذير من المونستروواكان، إلا أن الذي فهمته، فيما بعد، أن المونستروواكان كان بالفعل يساعدني ويُرسل إليَّ الإشارات، لكن الأجهزة والمعدات لم تكن تعمل بشكل جيد؛ بل توقفتْ تمامًا. توقف الهرم حتى عند تحريك المصاعد الكبيرة ومضخات الهواء لمدة ساعة تقريبًا، حتى عاد تدفق التيار الأرضي مرة أخرى بشكل كامل. ثم أصبحتُ على مسافة قريبة جدًّا من الدائرة التي تحيط بالهرم الأكبر، على بُعد أربعمائة خطوة، وأعتقد أن تلك المسافة هي مسافة آمنة جدًّا لي ولخادمتي. وفجأة؛ في مكان مظلم قبيل وصولي إلى الهرم الأكبر، قام ثلاثة رجال من الوحوش

---

[1] أخاديد: جمع أخدود، وهو شَقٌّ مستطيل غائر في الأرض، أو فتحة عميقة أو حُفرة في الأرض وخاصَّة فوق سطح الأرض.

يهرولون باتجاهي وهم يزأرون. كان الأول قريبًا جدًّا مني لدرجة أني لم أستطع الإمساك بالديسكوس، لكن استطعتُ ضرب رأسه، ثم قفزتُ إلى الجانب الآخر وأمسكتُ بالديسكوس، ثم هاجمتُ الاثنين الآخرين قبل أن يهاجماني، فقضيتُ عليهما. كانت الخادمة على ذرعي كالطفل.

اقتربتُ من الدائرة المحيطة بالهرم، حتى وصلتُ إلى مائة خطوة فقط. وكان قطيع من الرجال المستذئبين أتوا إلينا لقتلنا، حيث كانوا مختبئين، فأمسكوا بي وبالخادمة، وحاولوا أخذها من على ذراعي. وبالفعل، نجحوا في أخذها مني، لكن استخدام الديسكوس كان له شأن آخر. كان الفضل كله في استرجاع الخادمة من بين أيديهم. كان القطيع لديه أنياب كأنياب الخنازير، وقاموا بضربي والهجوم عليَّ بالحجارة الكبيرة حتى انثنى الدرع الذي كنتُ أدافع به عن نفسي والخادمة. امتلأ جسدي بالطعنات والضربات والكدمات والجروح الغائرة. ظللتُ أتقدمُ حتى أضمن وصولي إلى الدائرة المتوهجة المحيطة بالهرم الأكبر، وأثناء ذلك، لم أتمكن من قتل جميع المستذئبين؛ وإنما أنقذهم رفاقهم الآخرون. أوشكتْ قواي على الانهيار، لكن اقتربتُ أخيرًا من توهج الدائرة بخمسين خطوة فقط.

حَمِيَ الوَطيس بيني وبين المتبقي من قطيع المستذئبينَ، فتقدمَ ألف من رجال الهرم الأكبر المسلحين، وأثناء دخولي إلى

الدائرة أمسكوا بي. حاولتُ أن أخبرهم أنني بحاجة إلى أطباء من أجل الخادمة، ومن أجلي أيضًا؛ لأني شعرتُ بدوار برأسي، ولم أستطع أن أقف على قدمي. كانت أرض الظلام مشحونة بالضجيج والزئير والرعب والهلع والذعر. سألتُ رجلًا كان قريبًا من الديسكوس عما إذا كان هناك أي طبيب مع الرجال الذين سحبوني إلى داخل الدائرة أم لا، ثم ظهر قائد الديسكوس، فأخذ مني الخادمة، فسألته مرة أخرى عن طبيب موجود بينهم الآن. أصدر فورًا أوامره بعمل ممر طويل من الرجال المسلحين من الخارج إلى البوابة الكبرى للهرم الأكبر.

كان الأمر بعمل الممر صارما وسريعًا، وتم ذلك فعلًا. ثم جاء رجلان كبيران يهرولان باتجاهي، وكان بينهما رجل صغير الحجم، وهو كبير الأطباء، فساعدني على وضع الخادمة على الأرض ليتمكن من فحصها طبيًّا. وفجأة؛ نظر الطبيب إليَّ بهدوء وشفقة، فأدركتُ وقتئذٍ أن الخادمة قد فاضتْ روحها. ثم غطَّى وجهها، وأشار إلى بعض الرجال الذين كانوا يحيطون بي لكي يرفعوا الخادمة، فأخذوها بهدوء وسكينة إلى البوابة الكبرى للهرم الأكبر، والبعض الآخر من الرجال كانوا يخففون عني آلام موت الخادمة. نزلتُ إلى الممر المكون من مائة ألف رجل مسلح، وجميعهم يرتدون الدروع. كان الصمت والهدوء قد عَمَّ على الجميع. فهل فشلتُ حقًّا في إنقاذ

الخادمة؟! إن المؤكد أنني أنقذتُ خادمتي من رعب أرض الظلام الثانية، وهي لم تأت بمفردها، بل فاضتْ روحها بين ذراعيَّ.

أووه! عندما اقتربتُ من البوابة الكبرى، بدأت أضواء الهرم الأكبر في الإنارة، وعاد التيار الأرضي فتم تشغيل المصاعد والمضخات الهوائية بكامل قوتها، ومن ثم تم فتح البوابة الكبرى. ثم خرج جمع غفير من الناس لاستقبالي من سادة الهرم الأكبر وقادته، وكان السيد المونستروااكان على رأسهم. كان متحمسًا جدًّا لرؤيتي؛ لأنه صار أبي أو في منزلته، ثم تم إعلان خبر وفاة الخادمة. ثم دخلتُ عبر البوابة الكبرى، ووقف جميع حراس المراقبة هناك صامتين، ثم أعطوا تحية الشرف.

والآن، كان السيد المونستروااكان وكبير الأطباء ينظر أحدهما إلى الآخر، ففهمتُ أن الدم ينزف مني كثيرًا؛ لأن جروحي كثيرة، ومع ذلك، هل كان كبير الأطباء غير متحمس لعلاجي؛ لأنه لاحظ أني قد أُصِبتُ في قلبي.

۞۞۞

يبدو أن السيد المونستروكان قد رفعني من الأرض، وأومأ إلى بعض الذين كانوا يقفون خلفي ليأخذوا أسلحتي ودرعي. مضتْ ثلاثة أيام قاسية على نفسي، وكان معي الطبيب ليخفف عني آلامي وجروحي. وفي اليوم الثالث، عدتُ إلى وعيي وإلى حياتي الطبيعية. مكثتُ بضعة أيام في غرفة من غرف المستشفى بالهرم الأكبر، وكان الطبيب يأتي إليَّ دون أن يتحدث إليَّ؛ لكنه كان يباشر صحتي ويعطيني بعض الأدوية لعلاجي. وعدتُ مرة أخرى إلى معرفة أنني لم أعش قط؛ بل كانت قوة تسري بجسدي لا أعلم كُنهها. وكان أول مَن رأيتُه هو كبير الأطباء، وأدركتُ حينئذٍ أنه أيقظني وساعدني، وأنا أعيش من خلال الموت؛ أو بمعنى آخر أنني لم أعش بعد موت الخادمة. ثم أتى لي بثياب فضفاض، لكني رفضتُ أن ألبسه، أما الطبيب كان ينظر إليَّ دائمًا، ثم اتصل بشخص ما وأصدر أمرًا. كان الأمر بإحضار درعي المكسور، فألبسوني إياه. كنتُ أتخيل أن الخادمة هي التي تقوم بإلباسي إياه، ثم تضع قُبلة على شفتيَّ كعادتها. ثم أمر الطبيب بإنزالي إلى بلد الصمت، التي كانت تقع على بُعد مائة ميل من هذا العالم. فحملوني على صندوق إلى الطريق الأخير، لكن لم أقبل بذلك الوضع، فنزلتُ من الصندوق وسِرتُ على قدمين ثابتتين، ومددتُ يدي آخذًا الديسكوس من أحدهم. فأومأ الطبيب إليهم بأن يتركوني على راحتي أفعل ما أريد. وسِرتُ بثبات شديد على الطريق المؤدي إلى الطريق الأخير، وسار الطبيب ومَن

معه خلفي. ورأيتُ أسفل مني مكان الراحة الأخير؛ حيث كانت بداية الطريق الأخير، كما رأيتُ هناك شخصًا صغيرًا يرقد هناك، مغطى برداء أبيض.

كان الطبيب بجواري، فأعطاني شيئًا ما حتى أستنشق منه من أجل أن أتحمل آلام تلك اللحظة التي أعيشها أمام الشخص الصغير المغطى برداء أبيض، لكني رفضتُ ذلك، فلم يكن منه إلا أن تركني كما شئتُ؛ لأنه كان مدركًا لحقيقة أمري وعلى عِلم تام بما حدث لي وما يحدث الآن. وسرعان ما أتيتُ إلى ذلك المكان الذي استلقى فيه الميت، ووقف السيد المونستروواكان بجانبي مرتديًا درعه، ثم أعطى التحية بالديسكوس تكريمًا للميت. لم يكن مني إلا أن أخذتني الشجاعة، فوقفتُ على رأس خادمتي، ونظرتُ إلى بهاء الرداء الأبيض ورِفعته، ولأنها كانت خادمتي، تم تغطيتها برداء أبيض. كما أنه تم وضع إكليل من زهور البكاء الصفراء، كما نسميها، لأنها ماتت بسبب الحب. ثم وضعتُ الديسكوس الخاص بي بجانبها وهي في ردائها الأبيض قبيل الرحيل الأخير. ثم وقفتُ بلا حراك تمامًا، ونظرتُ إلى هذا الجسد المُسَجَّى الصغير الذي صار بعيدًا عني الآن، حيث يقع على الطريق المتحرك المؤدي إلى القبور. ولا أعلم أن المونستروواكان وخادمتين رفعوني من الأرض؛ لأنهم أدركوا أنني قد أموت بالفعل، لأني أرى خادمتي حبيبتي مستلقيةً بعيدًا عني في الطريق الأخير.

رآني المونستروااكان في حالة يُرثَى لها، فأمر بإيقاف مراسم الذهاب إلى الطريق الأخير، وأمر بإعادتها إلى الوراء؛ لأنني ركضتُ كالمجنون أصرخُ وأقول: خادمتي! حبيبتي! خادمتي! حبيبتي! وعندما أتيتُ إليها، جثوتُ على ركبتي وعلى يدي، فنظرتُ إليها بشدة، وأحاول أن أقول لها شيئًا، لكن فمي لم ينطق بكلمة.

أتاني المونستروااكان والطبيب يواسياني، لكن لم تكن آذاني تسمع لهما، بل كانت جُلّ جوارحي واقفة بخشوع تام أمام حبيبتي.

الفصل الرابع عشر

أيام الحب

الآن، عندما أعود إلى الحياة مرة أخرى، أعلمُ أنني صعدتُ لأعلى عبر المِصعد، وكنتُ على السرير نفسه. هل كنتُ أعتقد أنني لم أعد بحاجة إلى سريرٍ بعد الآن، ولا أن أصعدَ مرة أخرى خارج بلد الصمت؟!

وربما تحركتُ قليلًا؛ لأنه آتاني صوت الطبيب ضعيفًا لم أكن أسمعه أو أهتم به، بل كنتُ مشغولَ البال بخادمتي. ثم دخلتُ إلى مرحلة جديدة من حياتي ما بين الحياة والموت؛ لا أعرف إذا كنتُ حيًّا أم ميتًا!

ثم توالتْ الأيام، وتمضي ببطء شديد لا أعرف هل أنا حي أم ميت! كان الطبيب ينظر إليَّ لفترات طويلة، فكان يرى في عيني قوة الحب وصدقه، ومع ذلك لم يكن بيديه شيء البتة سوى النظر في وجهي والتعجب من حالي. حاولتُ كثيرًا أن ألمس جسدها الطاهر، وفعلتُ ذلك، فربما تعود إلى الحياة مرة أخرى، لكن دائمًا كانت صامتة لا تتكلم! كنتُ يومًا في حدائق الهرم الأكبر، حيث حملوني إلى هناك، ثم تركوني وشأني بعض الوقت. ثم جاء أحدٌ من داخل الأدغال، ونظر إلى وجهي على استحياء، والحب قد ظهر في عين ذلك الشخص. كنتُ أعرفه جيدًا؛ إنها خادمتي، لكني لم أرَ ناني ترتدي ملابس الخادمات من قبل. ثم نظرتُ إليها، وكانتْ في جمالها آية عجيبة. وفجأةً قمتُ متجهًا إليها، لكنها تهرب مني بسرعة لتمنعني من حماقتي التي سأفعلها. لم تكن ناني على الحقيقة؛ بل خادمة تشبهها، وكانت تقعُ بجواري وتضع رأسي على صدرها وتضع قُبلاتها الحميمية على شفتيَّ. فأهدأ كما كان حالي مع ناني. فكنا

نجلس سويًّا حتى عاد الذين أحضروني إلى هنا، وكان معهم الطبيب، فرأيتُ على وجهه الرضى عن حالتي.

كنتُ أرى الخادمة كل يوم، حتى استعدتْ صحتي من جديد، وكنتُ أنزل إلى الحدائق كثيرًا معها؛ لأن المونستروواكان والطبيب قد اتفقا على هذا الأمر. كما اتفقا على زواجي من تلك الخادمة. وبالتأكيد ستكون تلك الخادمة معي دائمًا، وقد صارتْ زوجتي الآن. وفي الحقيقة؛ قد كنا الآن في أيام الحب التي لن يكون مثلها أبدا. إنه الحب الحقيقي. وكنا نتجول سويًّا في تلك الحدائق دون أن يعرفنا أحد؛ لأنه كلما سألني أحد عن اسمي واسمها، كنا نخبره باسمين غير أسمائنا الحقيقية. تلك الخادمة أدخلت في قلبي الحب، والفرح، والحياة من جديد. كانت خجولة، ولم أكن أعرف قط أنني كنتُ على علم بما تخجل منه وبما لا تخجل منه. كان قد كتب الطبيب إرشادات طبية حتى تتحسن صحتي أكثر، وكانت الخادمة خائفة من أن أخالف تلك الإرشادات الطبية؛ لأنني سأموت في الحال إذا لم أفعل ما قاله الطبيب.

وهكذا أتيت إلى نهايتي؛ ولدي شيء آخر أقوله – وهذا سيحدث بعد فترة – بعد ذلك، انطلقتُ أنا والخادمة إلى مراسم الزواج الثاني وهو الزواج العام. لأنه في يوم من الأيام، أخذتني زوجتي، التي كانت خادمتي، إلى قاعة التكريم.

وبالفعل، عندما جئت إلى هناك، رأيت أن العديد من الشعوب كانوا في تلك القاعة العظيمة، ووقفوا في صمت.

تقدمتْ زوجتي – وأنا برفقتها – إلى منتصف القاعة، ففهمتُ لماذا أتتْ بي إلى منتصف القاعة؛ فإذ رأيتُ تمثالًا لرجل معه درع مكسور وعلى إحدى ذراعيه يحمل خادمته مدى الحياة.

تفاجأتُ بما أرى! إن هذا التكريم يقام للموتى العظام ومَن لهم شأن عظيم. أما أنا فعبارة عن رجل أحبَّ من كل قلبه خادمته. كانت خادمتي – زوجتي الآن – تبكي من شدة الفرح والفخر بي.

وفزتُ بذلك الشرف والتكريم، بعد أن تعلمت أن التكريم لا يكون إلا مع الحب؛ أي أن الآلام بعد الحب لا تعني شيئًا، وأن يكون بداخلك الحب هو أن تفوز بكل شيء؛ لأن الحب الحقيقي هو مصدر الشرف والإخلاص، وهذه هي أركان بناء بيت السعادة.

❖❖❖

فهرس المحتويات